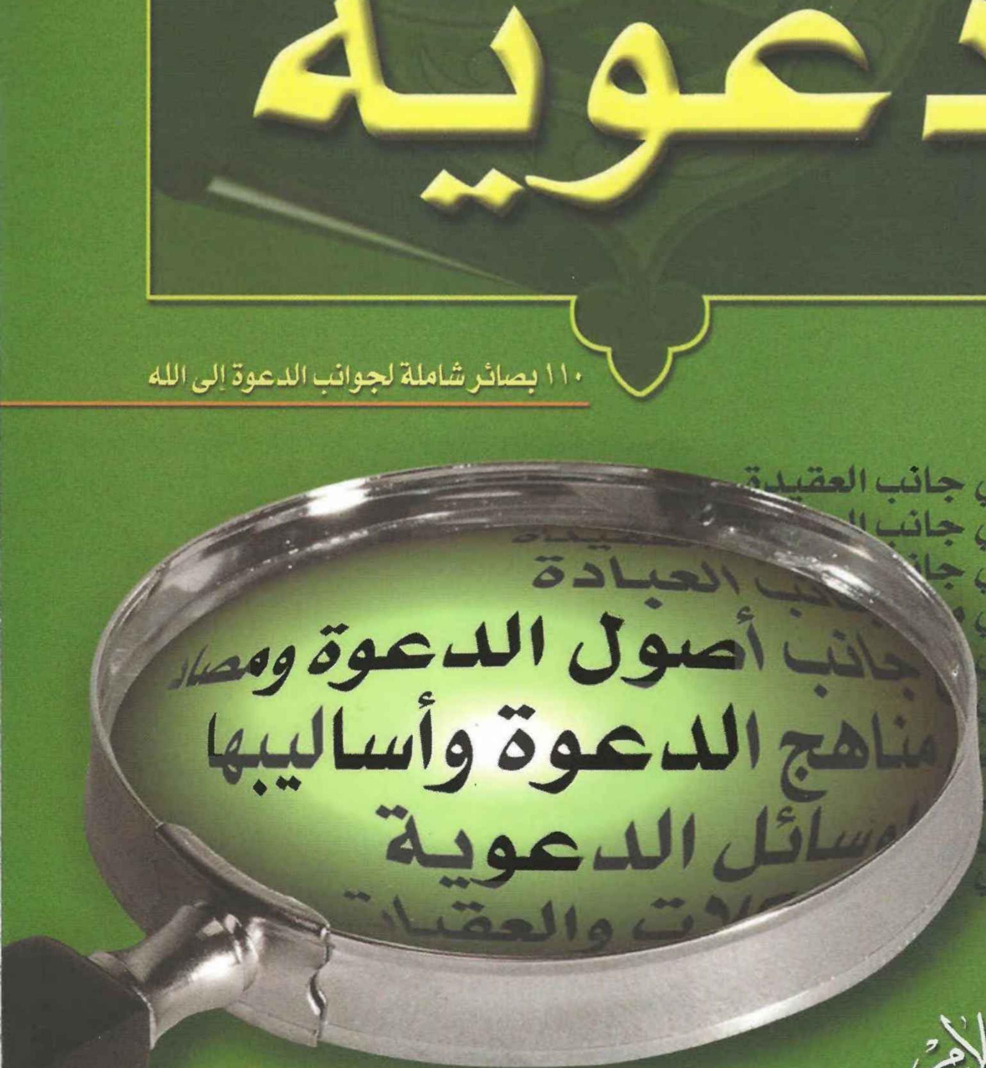
الدكتور/ محمد أبو الفتح البيانوني

بصائر دعوية

١١٠ بصائر شاملة لجوانب الدعوة إلى الله

- بصائر في جانب العقيدة
- بصائر في جانب ال
- بصائر في جا
- بصائر في
- بصائر في
- بصائر في
- بصائر في
- بصائر في
- بصائر في
- بصائر في



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بصائر دعوية

تأليف

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

رئيس قسم الفقه وأصول الفقه بكلية الشريعة
والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثانية

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه المبين ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (١) .

والقائل : ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة ، والداعي الأول الذي أعلن عن منهجه في الدعوة ، فقال كما أمره الله تعالى أن يقول : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

ورضي الله عن الصحابة والتابعين الذين حملوا لواء هذه الدعوة على أحسن وجه ، فنشروا رحمة الإسلام في العالمين ، وأناروا الطريق لمن بعدهم من الدعاة العاملين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

فأصل هذه البصائر الدعوية حلقاتٌ إذاعية قُدِّمت من خلال إذاعة القرآن الكريم في الكويت في شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠هـ - الموافق لعام ٢٠٠٠م .

ونظرًا لتزايد طلب المستمعين إليها ، واتصالهم بي من أجلها ، وكثرة تفاعل بعضهم معها ، عملتُ على نشرها حلقات متتابعة في مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت .

ثم بادر ولدي بشار - وفقه الله - إلى نشرها متسلسلة في موقع له على شبكة الإنترنت (٤) .

---

(١) الآية (١٠٤) من سورة الأنعام .

(٢) الآية (٢٠٣) من سورة الأعراف .

(٣) الآية (١٠٨) من سورة يوسف .

(٤) شبكة رنيم العربية www . wvvw . net

وتبعًا لإلحاح كثير من المستمعين إليها ، والقارئين لها عملتُ على تقديمها إلى القراء الكرام في كتاب جامع لها ، دون حذف منها ، أو إضافة عليها ، اللهم إلا ما اقتضته طبيعة النشر لها في كتاب ، وكتابة هذه المقدمة لها ، حتى أصبح الكتاب شاملًا لهذه المقدمة ، وتمهيد ، وسبعة فصول هي :

الفَصْلُ الأَوَّلُ : بصائر دعوية في جانب العقيدة ، وجعلتها سبع بصائر .

الفَصْلُ الثَّانِي : بصائر في جانب العبادة وجعلتها خمس بصائر .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : بصائر في جانب أصول الدعوة ومصادرها ، وجعلتها أربع بصائر .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : بصائر في جانب مناهج الدعوة وأساليبها ، وجعلتها ست بصائر .

الفَصْلُ الخَامِسُ : بصائر في جانب الوسائل الدعوية ، وجعلتها في بصيرتين .

الفَصْلُ السَّادِسُ : بصائر في جانب المشكلات والعقبات الدعوية ، وجعلتها في أربع بصائر .

الفَصْلُ السَّابِعُ : بصائر متفرقة ، وجعلتها خمس بصائر .

ولا عجب أن تلقى البصائر الدعوية هذا القبول من الناس على مختلف مستوياتهم العلمية ، واهتماماتهم الدعوية ، نظرًا لازدياد الحاجة إليها ، واضطراب كثير من دعاة اليوم في مناهجهم وأساليبهم .

وإذا كان في هذه البصائر نوع تكرار لما سبقت كتابته في كتابي (المدخل إلى علم الدعوة) فإن فيها كثيرًا من الجديد الذي تمس الحاجة إليه ، والذي لم تكن تستوعبه يومئذ طبيعة المدخل .

ومن هنا : يمكن اعتبار هذه البصائر تكميلًا للموضوعات التي تناولها المدخل من جهة ، وتفصيلًا لها وتأكيدًا على بعضها من جهة أخرى .

وأملي أن يجد فيها الدعاة مادة دعوية سهلة موجزة للدراسة والتدارس فيما بينهم ، لتأخذ هذه البصائر طريقها في حياة الدعوة الإسلامية المعاصرة ، فتدفع الغفلة القائمة عن كثير منها ، وتصحح الأخطاء المنتشرة حولها ، وتفتح باب الحوار بين الدعاة فيها وفيما شابهها من بصائر أخرى .

سائلًا اللّه ﷻ أن يتقبلها قبولًا حسنًا ، وأن يفتح لها القلوب ، وأن يجعلها ذخرًا لي يوم الدين .. وأن يجزي دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة خيرًا على عنايتهم بها ، وحرصهم على نشرها وتعميم فائدتها ، إنه سميع مجيب .

والحمد للّه رب العالمين

١٧ / شوال / ١٤٢١هـ .
١٢ / ١ / ٢٠٠١م .

كتبها

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

رئيس قسم الفقه وأصول الفقه بكلية الشريعة

والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

* * *

تمهيد

بين يدي البصائر الدعوية

هذا الكتاب يتناول بصائر دعوية عديدة من جوانب متنوعة ، آمل أن تفتح لها القلوب قبل الأسماع ، وأن تأخذ حقها من قراءتها والاستماع إليها ، والتفكر والتدبر في أمرها ، وأن يحرص على التمثل بها ، والإفادة منها في دعوتنا إلى هذا الدين العظيم ، لنكون جميعًا من الدعاة إليه على بصيرة كما أراد الله ورسوله .

فإنه كلما كانت الدعوة إلى أمر عظيم ، عظمت الحاجة إلى البصيرة فيها ، وإلى الإحسان في مناهجها وأساليبها ووسائلها .

وهل هناك شيء أعظم من الدعوة إلى الله ، وهل هناك شيء أحسن من أن يُلحق المؤمن بركب الأنبياء والمرسلين ، وقوافل الدعاة والمصلحين ؟!!

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

أيها الإخوة والأخوات : لما كانت الدعوة إلى الإسلام تعني : (الدعوة إلى اعتناقه عقيدة ، وشريعة ، ونظام حياة ، وذلك على جميع المستويات ، وفي مختلف الميادين) وليست كما يتوهمها البعض : دعوة جزئية أو جانبية ، تدعو إلى فضيلة خاصة ، أو خلق معين ، كما أنها ليست قاصرة على مجرد انتساب المرء إلى جمعية من الجمعيات ، أو جماعة من الجماعات .

ولما كان مفهوم البصائر الدعوية أشمل من أن يكون قاصرًا على بصائر في منهج أو أسلوب أو وسيلة .

اخترت أن أجعل حديثي عن (البصائر الدعوية) متناولًا جوانب عديدة من هذه البصائر من ذلك :

١ - بصائر في جانب العقيدة .

٢ - بصائر في جانب العبادة .

---

(١) الآية (٣٣) من سورة فصلت .

٣ - بصائر في جانب أصول الدعوة ومصادرها .

٤ - بصائر في جانب منهج الدعوة وأسلوبها .

٥ - بصائر في جانب وسائل الدعوة .

٦ - بصائر في جانب معالجة العقبات والمشكلات في طريق الدعوة .

وإن هذه البصائر لا تكون بصائر بالمعنى الصحيح ، إلا إذا كانت مأخوذة ومستوحاة من كتاب الله ﷻ ، وسنة وسيرة رسوله ﷺ ، ومنسجمة مع سيرة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين ، والعلماء العاملين ، والدعاة الربانيين الذين أُمرنا باتباع سنتهم والاقتداء بهديهم .

كما أنها لا تكون كذلك إلا بقدر التفهم للواقع الذي تُراد فيه الدعوة إلى الله والتبصر بأحوال المدعوين لهذا الإسلام .. وإلا كانت الدعوة دخولًا إلى البيت من غير بابه ! ووضعًا للشيء في غير نصابه ، فيسيء الداعي من حيث يريد الإحسان ، ويُنفر من دعوته من حيث يريد الدعوة إليها ، والتحبيب بها !!

لهذا كله : كان لابد للداعية إلى الله على بصيرة من بصيرة واسعة في أمر دينه ودعوته أولًا ، ومعرفة دقيقة بواقعه وواقع المدعوين من حوله ثانيًا .

كما لابد لنجاح الدعوة وقبولها عند الله من تحقق شرطين أساسيين هما :

١ - الإخلاص لله في الدعوة ، وتقوى الله فيها .

٢ - السداد والصواب في منهجها وأسلوبها .

فهذان الشرطان لابد منهما معًا لنجاح الدعوة من جهة ، ولقبولها عند الله من جهة أخرى ، وذلك على وجه يستحق صاحبها فيه رحمة الله ورضاه ، وغفران ذنوبه .

كما يستحق أن تصلح أعماله ، وتُثمر جهوده .. مصداقًا لقول الله ﷻ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [1] .

---

(١) الآيتان (٧٠ - ٧١) الأحزاب .

أيها الإخوة والأخوات : إن على الداعية إذا لاحظ فشلًا في دعوته ، وإخفاقًا في أسلوبه ووسيلته ، ورأى انصراف الناس عنه وعدم قبولهم منه ؛ عليه قبل كل شيء : أن يراجع نفسه ويحاسبها في تقواها وإخلاصها للّه من جهة ، وأن يُعيد النظر في منهجه وأسلوبه ووسيلته من جهة أخرى ، ليتيقن من مدى الصواب والسداد فيها ، قبل أن ييأس من الناس ويوجه التهمة إليهم ، أو يحكم عليهم .. قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [(١)] .

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ : (جاءه البشير يومًا بالنصر على الأعداء ، فسأله عمر : كم لبثتم أمام الأعداء ؟ فقال البشير : من غداة إلى عشية ، فبكى عمر ، واستغرب المبشر بكاءه ، وقال : أبشرك بالنصر وتبكي !؟ فأجابه عمر : لا يقف الكفر أمام الإيمان من غداة إلى عشية إلا بذنب أحدثتموه أنتم أو أنا) .

فأين هذا الموقف من موقف كثير من الدعاة اليوم ، الذين قد لا يجدون تعليلًا لانهزامهم وفشلهم في مواقف دعوية ، إلا في كثرة أعدائهم ومكرهم بهم ؟!.

نسأل اللّه ﷻ أن يُبصرنا في ديننا ودعوتنا ، وأن يقينا شَرَّ نفوسنا ، وأن يرزقنا السداد والإخلاص في القول والعمل .

* * *

---

(١) الآية (٣٠) الشورى .

الفصل الأول

بصائر في جانب العقيدة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد سبق أن أشرت في التمهيد إلى أن البصائر الدعوية تشتمل على أنواع عديدة وجوانب متنوعة .

وها نحن هنا نتناول أولى تلك البصائر ، ألا وهي : البصائر في جانب العقيدة .

والعقيدة في الدعوة الإسلامية : هي أول ما يدعى إليه ، والأساس الذي يبنى عليه ، فإذا صلحت صلح البناء كله ، وإذا فسدت فسد البناء كله .

ومن هنا عني القرآن الكريم في مكة المكرمة أول ما قامت هذه الدعوة الإسلامية ، ببناء العقيدة وتصحيحها ، فعمل على تثبيت العقيدة الصحيحة وترسيخها ، قبل أن يعمل على بيان الأحكام الشرعية وتوضيح الأمور الفرعية ، وفي هذا تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تتحدث عن نزول القرآن الكريم : **(إنما نزل أول ما نزل منه سورة المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبدًا)** [١] .

أيها الإخوة والأخوات : إن البصيرة الدعوية في جانب العقيدة ، تتطلب منا أن نقف على ثلاثة أمور أساسية هي :

١ - التبصر في ترتيبها بين الأولويات الدعوية ، ومكانتها منها .

٢ - التبصر في ملامح المنهج الرباني في تقريرها ، وتثبيتها والحفاظ عليها .

٣ - التبصر في المنهج والأسلوب الذي تُتناول به .

وقد فصلتها في سبع بصائر هي :

---

(١) رواه البخاري في باب (تأليف القرآن) رقم (٤٩٩٣) .

البصيرة الأولى : وتكمن في جعل العقيدة المبتدأ الذي يبدأ منه الداعية في دعوته والمنطلق الذي ينطلق منه ، ذلك لأن جميع تصرفات الإنسان وأعماله إنما تتأثر بالعقيدة التي يعتقدها والتصور القائم في نفسه عنها .

فإذا كان معتقده صحيحًا سالمًا ، كان عمله صحيحًا سالمًا ..

وإذا كان معتقده باطلًا فاسدًا ، كان عمله باطلًا فاسدًا ..

وإذا كان معتقده مشوبًا بشيء من باطل أو ضلال ، لم تسلم أعماله وتصرفاته من ذلك الباطل وهذا الضلال ..

فالمرء الذي لا يؤمن باللّه واليوم الآخر مثلًا : لابد أن يقع في أعماله وتصرفاته في الباطل والضلال ؛ لأنه فقد الهادي الذي يهديه في الظلمات ، والمجيب الذي يجيبه عن التساؤلات والمشكلات ، ولا سيما في معظم الأمور الغيبية التي تخرج عن دائرة الحسّ ، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقيقتها عن طريق عقله وتفكره - مهما كان عقله كبيرًا ، أو كان فهمه عظيمًا - !!

فقد يتجه إلى عبادة حجر أو شجر ، أو يقع في تقديس جماد أو بشر ، نظرًا لما يشاهده من منافعه ، ويقف عليه من آثاره المحببة لديه .. غافلًا عن مصدر النفع الحقيقي في هذا المعبود ، وعن خالق هذا الأثر الطيب فيه ، فتصرفه عبادة المخلوق عن عبادة الخالق ، وينسيه نفع المخلوق خالقَ النفع فيه !! كما حدث ويحدث في عبادة الأحجار والأصنام ، وتعظيم الشمس والقمر ، وتقديس البقر والبشر !!.

كما أن هذا المرء يفقد بفقد إيمانه باليوم الآخر ذلك الوازع الداخلي الذي يزعه عن الخطأ ، ويمنعه من الوقوع في المعاصي والآثام ؛ إذ أنه يكذب بيوم الدين ، ولا يؤمن باللّه العظيم الذي سيحاسبه عن كل ما يعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ..

ومن هنا : جاء تعليل القرآن الكريم لتصرفات أولئك الذين وقعوا في الضلال ، وانحرفوا عن الصواب ، ببعدهم عن الإيمان وأركانه ، فقال ﷻ في إجابة الكافرين عن أسئلة المؤمنين : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ

ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

أيها الإخوة والأخوات : أليس من مجانبة العقل والحكمة بعد بيان هذه البصيرة : أن يبدأ الداعية بالدعوة إلى خلق معين أو فضيلة خاصة – مهما كانت عظيمة ومهمة – قبل أن يدعو إلى العقيدة التي انبثق منها ذلك الخلق ، وترتبت عليه تلك الفضيلة !

ألا يكون حال هذا الداعي عندئذ كحال من ينفخ في رماد ، أو يبني بيتًا على غير أساس !!

البصيرة الثانية : إن مما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام : أن البصيرة الأولى السابقة في ترتيب أمور العقيدة ، وتقديمها على غيرها من الأمور : لا تعني دائمًا البدء مع كل مدعو من نقطة العقيدة فيسوِّي في الدعوة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدي والضال ، وبين القريب والبعيد ، وبين المبتدئ والمتقدم ، وبين المتأول وغيره .. فيتحدث الداعي مع هؤلاء حديثًا واحدًا ، ويبدأ معهم من نقطة واحدة ، فيسوي بين المختلفين ، ويكرر على المؤمن أركان الإيمان ، ويدعو المسلم إلى أركان الإسلام ، على وجه يُشعر المدعو بالتشكيك في إيمانه ، وعدم التصديق بإسلامه ؟

وإنما يُبدأ مع كل مدعو من حيث هو واقف ، فنكمل له ما كان فيه ناقصًا ، ونقدم له ما كان إليه محتاجًا ، ونأخذ بيده إلى درجات الكمال والترقي .

كما أنه لا يبدأ مع كل مدعو إلى العقيدة الإسلامية من نقطة واحدة وسؤال واحد ، فلا يسأل كل واحد مثلًا بسؤال : أين الله ؟ كما فعل رسول الله ﷺ مع الجارية المقيمة في بيئة وثنية ليكشف عن إيمانها بالله الحق ، فنأتي نحن

(١) الآيات (٤٢ – ٤٧) سورة المدثر .
(٢) الآيات (١ – ٦) المطففين .

ونعممه على كل مدعو قبل دعوته ، فنسأل الكبير والصغير ، والعالم والجاهل السؤال نفسه ، ونلزمه بالجواب نفسه الذي أجابت به الجارية ، وإلا حكمنا عليه بالكفر أو الضلال !! فإن لكل مقام مقالًا ، ولكل موقف سؤالًا ..

هل فكر من يقع في مثل هذا الخطأ : كم مرة وجه الرسول ﷺ هذا السؤال ؟ وإلى كم شخص وجهه إليه ؟ هل فكر في هذا قبل أن يفهم مِنْ مثل هذا الحديث الشريف أن مثل هذا السؤال قد صار سنة متبعة ، وسؤالًا لازمًا لكل مدعو !!

إننا إذا لم نتبصر في هذه الأمور ، نفرنا من حيث نريد التقريب ، وأسأنا من حيث نريد الإحسان !!

فإن من البصيرة الدعوية أن نفرق بين مقام الدعوة والتعليم ، وبين مقام الاختبار والامتحان والحكم على الناس ..

كما أن من البصيرة في جانب العقيدة : أن نفرق بين من ينفي القول مثلًا بأن الله في السماء ، ويأبى التصريح بها تنزيهًا لله عن الاحتواء والحصر ، وعن التشبيه بالمخلوقين ، مع التسليم بالمعنى الصحيح لهذا القول ، وبين من ينفي هذا المعنى مطلقًا ، ويعتقد أن فوق السماوات عدمٌ مَحْضٌ ..فلا يصح أن يُسوّى بين المتأول والضال [(١)] !!

البصيرة الثالثة في جانب العقيدة : وتكمن في ضرورة ملاحظة أن ما كان من الأمور العقدية يأتي في المرتبة الأولى في سلم الأولويات ، لا يستلزم أن يكون الأول في كل زمان وحال .. فقد تتحول الأولويات وتتغير من زمن لآخر ، ومن بيئة إلى أخرى ؛ فإن لكل حال وزمان أولوياته الدعوية .

فلما نشأ اتجاه تقديم العقل على النقل عند بعض المسلمين ، في العصور الأولى ، كان همُّ العلماء والمصلحين في تلك العصور مركزًا على معالجة هذا الأمر ، ودحض الشبهات المؤدية إليه ، أكثر من تركيزهم على مسائل عقدية أخرى .

ويوم ظهر موضوع المحنة (بالقول بخلق القرآن) انصرف العلماء إلى معالجته

---

(١) نبه إلى هذا الفرق صراحة الإمام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٩ / ١٤٠ - ١٤١) .

ورد شبهاته ، وجعلوه أولوية لازمة في عصرهم ، وتحملوا ما تحملوا من أجله .

وهكذا فعل العلماء والمصلحون يوم برز اتجاه الإرجاء والتعطيل وما إلى ذلك من اتجاهات عقدية فاسدة ، فأنزلوا موضوع التصدي لها ومناقشتها المنزلة الأولى من اهتماماتهم ، وقدموا تلك المسائل على غيرها من المسائل العقدية الهامة الأخرى .

واليوم ، حيث تبرز اتجاهات الإلحاد والعلمنة ، والتحاكم لغير شرع الله .. يكون البصيرة الدعوية التركيز عليها أكثر من غيرها ، ولا يجوز لنا بوجه من الوجوه أن نُشغَل عنها بجزئيات عقدية ، مهما كانت مهمة ، وإلا نكون كمن يشغل بالجزئيات عن الكليات ، وبالفرعيات عن الأساسيات ، أو يُشغل بمسائل تاريخية عن مسائل واقعية معاصرة ومسائل نظرية عن مسائل عملية . وهكذا .

فإن لكل عصر أولوياته وقضاياه ، ولكل زمان مشكلاته وشبهاته ، ولكل حال مقتضياتها ومتطلباتها .

البصيرة الرابعة : أن لا يبدأ من يريد تعليم العقيدة الصحيحة ونشرها بين الناس ، بأسلوب رد الشبهات المثارة حولها ، ومناقشة الخلافات الواردة فيها .. بل يبدأ بتقرير العقيدة الصحيحة ، وإبراز أهميتها ، والأدلة عليها ، ومحاسنها على وجه تتلاشى أمامه الشبهات القائمة أو المتوقعة تلقائيًا .

وذلك حتى لا تتداخل الشبهات مع أصل العقيدة ، فتعكر من صفائها ، أو تعقّد من فهمها .. أولًا .

وتمشيًا مع ملامح المنهج الرباني الذي يبدأ بتقرير العقيدة الصحيحة ، وتثبيتها في النفوس البشرية وتحصينها ، قبل أن يبدأ بإبطال العقائد الفاسدة السائدة ، ومناقشة شبهاتها .. ثانيًا .

وانسجامًا مع الفطرة البشرية السليمة التي تتقبل الحق وتقبل عليه ، وترفض الباطل وتنفر منه .. ثالثًا .

البصيرة الخامسة : أن تُتجنب في تقرير العقيدة وتعليمها للناس الأساليب الكلامية ، والمناهج الفلسفية التي صيغت بها كثير من كتب العقائد في عصور

سابقة .. وأن تقدم العقيدة إلى الناس من خلال النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية التي عرضت بها في الصدر الأول .

فكثيرًا ما يعرض بعد الناس اليوم عن كتب العقيدة خاصة ، وإعراضهم عنها ، إلى أسلوب صياغتها واعتمادها على أساليب علم الكلام والمنطق ، التي كانت سائدة في بعض العصور السابقة ، ومقبولة سائغة من قبل أهل تلك العصور .. حتى أصبحت مادة العقيدة الإسلامية عند كثير من الدارسين لها في المعاهد والجامعات من أصعب المواد التعليمية ، وأعقد الدراسات الشرعية !!

فلابد من العمل على صياغة المسائل العقدية في كتب العقيدة ، ولا سيما للمبتدئين بأسلوب سهل واضح يناسب لغة العصر ، وفهم أهله ، وأن تؤخذ الأمثلة الناطقة بها من واقع الناس ومشاهداتهم ، وأن تربط مسائل العقيدة اليوم ، بواقع الناس وسلوكهم ، بدلًا من أن يمثل لها بأمثلة تاريخية قديمة ، ومواقف تاريخية سابقة !!

ولا تعني هذه البصيرة التشطيب على الكتب العلمية القديمة ، وتجاهل بعض المسائل العقدية المهمة ، وإنما تترك للمتخصصين في علم العقيدة والباحثين فيها ، الذين وضح لهم الحق من الضلال ، وتميز لديهم الصحيح من الفاسد من جهة ، والذين تجب عليهم الإفادة من تراث السابقين وأساليبهم في معالجة مشكلات عصرهم من جهة أخرى ، فإن في مثل هذه الكتب من الفوائد ما لا يستغني عنه أمثال هؤلاء .

البصيرة السادسة : أن ترتكز الكتابات العقدية الحديثة على كل من العقل والعاطفة في وقت واحد ، فلا تصاغ المسائل العقدية على شكل تصورات عقلية ، أو محاكمات فكرية مجردة .. أو تكون عبارة عن لمسات عاطفية ، ومشاعر وجدانية بعيدة عن العقل والتفكر .

بل لابد من أن تلامس هذه الكتابات والمقالات روح الإنسان كما تلامس عقله ، وتخاطب الفكر كما تخاطب الوجدان .

وأن يُتحدث عن خصائص العقيدة الإسلامية وآثارها في النفس البشرية بالتفصيل ، كما تقرر أحكامها ومسائلها بالتفصيل ، وإلا كانت عقيدة نظرية

مجردة ، أكثر منها عقيدة عملية مؤثرة .

فإنه بقدر المزج بين العقل والعاطفة في الكتابات العقدية من جهة ، وبقدر الجمع بين الأحكام والآثار ، وتوثيق ربطها بها من جهة أخرى ، تفعل العقيدة الإسلامية فعلها في النفوس ، وتتجلى آثارها العملية في حياة الناس .

وبقدر الفصل والبعد في كتب العقيدة بين العقل والعاطفة ، والحكم والأثر ؛ تصبح العقيدة في النفوس البشرية مجرد مشاعر وجدانية ، أو محاكمات فكرية جافة ، أو نظريات مجردة بعيدة عن التطبيق .

فعندما يتناول الداعية الحديث عن صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنى مثلًا ، لا يصح له أن يقصر حديثه على إثبات تلك الأسماء والصفات فحسب ، لتحفظ وتكرر دون استشعار لمدلولاتها ، ووقوف على آثارها .

فمن المعلوم أن لكل اسم من أسماء الله الحسنى ، ولكل صفة من صفاته العلى أثرًا في هذا الإنسان وفي الكون من حوله ، فمن البصيرة في الدعوة إلى العقيدة ، أن تربط تلك الأسماء والصفات الجليلة بآثارها العظيمة النافعة .

فمن أثر الرحمن الرحيم ، رحمة الله البالغة بالعباد والمخلوقات .

ومن أثر الخالق البارئ المصور ، الخلق والتصوير .

ومن أثر القابض الباسط ، الرزق وقبضه وبسطه .

ومن أثر المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الهيمنة المطلقة على هذا الكون ، والخضوع المطلق له سبحانه ، واللجوء إليه .

ومن أثر الهادي النافع ، والمعطي المانع ، الاهتداء بهديه والرغبة بنفعه وعطائه، والرهبة والخوف من ضره ومنعه .

وقل مثل هذا في كل اسم من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي أمرنا أن ندعو الله بها ونناجيه سبحانه .. قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الآية (١٨٠) الأعراف .

والتي جاء الترغيب بإحصائها وحفظها ، ليكون العبد دائمًا على صلة بها ، وتفكر في معانيها ؛ فقد جاء في الحديث الشريف : **« إن لله تسعة وتسعين اسمًا ، مائة إلا واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة »** [١] ، كما جاء في الحديث المتفق عليه أيضًا عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سريَّة ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : **« سلوه لأي شيء يصنع ذلك »** ، فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي ﷺ : **« أخبروه أن الله يحبه »** [٢] .

البصيرة السابعة : ينبغي أن يغلب على أسلوب دعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة ، ونهيهم عن العقيدة الفاسدة ، أسلوب الموعظة الحسنة على أسلوب المجادلة ، وأسلوب الإشفاق والرحمة بالمدعوين على أسلوب الإنكار والتشنيع عليهم .. فيختار لذلك الأسلوب المحبب ، واللفظ المؤدب ..

فلا ينادي الكافر عند دعوته إلى الإسلام بلقب الكافر ، ولا يخاطب الضال والمبتدع بلقب الضال والمبتدع ، وما إلى ذلك من ألقاب اعتاد بعض الناس أن يوزعها على المدعوين والمخالفين ، فيقابلهم الناس بمثلها أو أسوأ منها !

وإنما ينبغي عليه أن يخاطبهم - إن كان داعية بصيرًا - بروح الأخوة والمودة والمحبة ، فيختار الألفاظ والألقاب المحببة إلى النفوس ، والمؤثرة فيها ، والجاذبة لها .. وإلا كان منفرًا فتَّانًا قبل أن يكون ميسرًا مبشرًا ، وهاديًا مهديا ..

وما أكثر ما يغفل بعض دعاتنا عن مثل هذه البصيرة ، ويصور لهم شياطين الإنس والجن أن أفعالهم وأساليبهم الخاطئة هذه ، جرأة في الحق ، وصدعٌ به ، وأنهم يكونون بذلك من الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، فيسيئون من حيث يريدون الإحسان !!

* * *

---

(١) متفق عليه ، انظر صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، حديث (٢٥٣١) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، رقم (٤٨٣٦) .

(٢) انظر البخاري ، كتاب التوحيد ، رقم (٦٨٢٧) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، رقم (١٣٤٧) .

الفصل
الثاني

بصائر في جانب العبادة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه المبين : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وإمام العابدين ، ورضي الله عن الصحابة والتابعين ، وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن العبادة في الإسلام تأتي في الدرجة الثانية بعد العقيدة ، التي سبق أن تحدثنا عن البصائر فيها .. ذلك لأن العبادة هي وظيفة الإنسان في هذه الحياة ، التي خلق من أجلها ، وهي مقتضى إيمانه بربه ، واعتقاده الصحيح بربوبيته وألوهيته ..

ومن هنا : جاءت أركان الإسلام الخمسة شاملة للركن الاعتقادي والركن العبادي ، فكان أولها شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وكان باقيها : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ..

أيها الإخوة والأخوات :إن الداعية لهذا الإسلام العظيم ، كما يجب عليه أن يتبصر في دعوته إلى عقيدة الإسلام ، يجب عليه أيضًا أن يتبصر في دعوته إلى عبادة الله ﷻ ، وذلك قيامًا بواجبه نحو دينه من جهة ، وتجلية لمحاسن العقيدة والعبادة فيه من جهة أخرى ، وقد تناولت هذا الجانب في خمس بصائر هي :

البصيرة الأولى : أن يوجه الداعية اهتمامه إلى تصحيح مفهوم العبادة في النفوس ، ليخلُصَ مفهومها مما شابَه من شوائب مع مرور الزمن ، ولعل أخطر هذه الشوائب التي شابت مفهوم العبادة في الإسلام عند كثير من المسلمين :

أ - الحصر لمفهوم العبادة في المعنى الخاص للعبادة ، وهو (**القيام بالشعائر التعبدية وانحساره عن المعنى العام لها ، الشامل لكل عمل من أعمال العبد ، والمنتظم لكل علاقة من علاقاته ..**) .

ب - قصر معنى العبادة عمليًا على بعض المعاني اللغوية لها الواردة في

القرآن الكريم دون بعض .

أما عن المفهوم الأول : فقد فهم كثير من المسلمين العبادة أعمالًا تتعلق بصلة العبد بربه ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وفصلوا بينها وبين غيرها من العلاقات الأخرى ، كعلاقته بنفسه ، وعلاقته بالناس من حوله !!

فما كان من التصرفات والأعمال بين العبد وربه اعتبروه عبادة ، وخضعوا فيه للأحكام الشرعية .. وما كان غير ذلك اعتبروه من الأعمال الدنيوية ، والتصرفات الشخصية ، التي لا يُرجع فيها إلى دين ، ولا يُحكِّمُ فيها شرع !!

وأصبح كثيرٌ منهم إذا ما سمع لفظة العبادة في آية قرآنية ، أو حديث شريف ، انصرف ذهنه إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب !

وهذا المفهوم الضيق عن العبادة ، وهذا الحصر لها بالشعائر التعبدية ، والطقوس الدينية ، يشبه إلى حد كبير مفهوم المشركين الأوائل للعبادات التي كانوا يمارسونها ، والطقوس التي كانوا يؤدونها لأصنامهم وآلهتهم ..فكانوا يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (١) .

ومن هنا استشكل عدي بن حاتم ﷺ معنى قوله ﷻ في اليهود والنصارى :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم - أي لم يقدموا لهم الشعائر والطقوس - فأوضح له رسول الله ﷺ أن عبادتهم لهم إنما هي في اتباعهم ، فقال : « إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ؛ فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذي .

وقد علل الأستاذ سيد قطب رحمه الله هذا التفسير ، فقال :

(إنما أطلقت لفظة العبادة على الشعائر التعبدية باعتبارها صورة من صور

(١) الآية (٣) الزمر .
(٢) الآية (٣١) التوبة .

الدينونة لله في شأن من الشؤون ، صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة .

فلما بهت مدلول الدين ، ومدلول العبادة في نفوس الناس ، صاروا يفهمون : أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس عن الإسلام إلى الجاهلية هي فقط : تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلًا .

وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة ، فقد بعد عن الشرك والجاهلية ، وأصبح مسلمًا لا يجوز تكفيره ، وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه ، وعرضه وماله .. إلى آخر حقوق المسلم على المسلم ..!

ثم قال : وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ العبادة . ثم قال : والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ، ما استحقت كل هذا الموكب العظيم من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنيةالتي بذلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ..) [1] .

كما أشار رحمه الله إلى أثر الاصطلاح الفقهي السائد في تقسيم النشاط الإنساني ، إلى عبادات ومعاملات في تحويل هذا المفهوم - مع أنه كان أول الأمر مجرد تقسيم فني علمي - [2] .

هذا عن المفهوم الأول الذي شاب مفهوم العبادة بمعناها العام .

أما عن المفهوم الثاني : فقد استعمل القرآن الكريم لفظ العبادة عدة استعمالات أساسية يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - في معنى العَبْدية والطاعة معًا .

٢ - في معنى الطاعة فقط .

٣ - في معنى التأله .

---

(١) انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، (٤ / ١٩٠٢ - ١٩٠٣) بتصرف .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته ، ص ١٢٩ .

٤ - في جميع هذه المعاني السابقة في وقت واحد .

فقصر بعض الناس معنى العبادة على واحد من هذه المعاني دون غيره يخرجها عن معناها الشرعي العام الذي أراده الله منها .

ولعل من أبرز مظاهر القصر :

١ - استبعاد معنى (التأله) من مفهوم العبادة ، وقصره على الطاعة والخضوع فقط ، حيث أوقع بعض الناس في بعض مظاهر الشرك ، من الاعتقاد بالخرافات ، والعياذ بالجن والشياطين واللجوء إليهما - مع محافظتهم على الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من الأحكام الشرعية الأخرى - كما هو ملاحظ في واقع كثير من المسلمين .

٢ - إشراك غير الله ﷻ مع الله في معاني العبادة ، دون أن يستشعر المرء مناقضة ذلك للعبودية ، وذلك كإشراك غير الله في الطاعة والاتباع ، سواء كان هذا الغيرُ زوجةً أو ولدًا ، أو حاكمًا ، أو شيطانًا ، علمًا بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق !

٣ - صرف الهمة لغير الله ، وتفضيل أمره على أمر الله ، كحب كثير الناس للدنيا ، وعبادتهم للشهوات والغرائز ، دون أن يشعر بقدح هذا في العبودية لله وتأثيره فيها !!

وإلى هذا ومثله أشار الرسول ﷺ بقوله : « تعسَ عبد الدرهم ، تَعِسَ عبد الدينار .. » [1] .

وقد حذَّر القرآن الكريم من مثل هذا المعنى فقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [2] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، رقم (٢٦٧٣) .

(٢) الآية (٢٤) التوبة .

أيها الإخوة والأخوات : إن هذا الاختلاف في مفاهيم العبادة في الإسلام ، يهدد أعظم أساس في بناء الإسلام بعد الإيمان بالله ﷻ ، وذلك بتشويه صورة العبادة التي أرادها الله من عباده ، وخلق الإنسان من أجلها ، وانصراف المسلمين عنها إلى مفاهيم ضيقة قاصرة لا تحقق غاية العبادات ولا تترك آثارها في حياة الناس ..

ومن هنا أرى أن هذه البصيرة تُعدُّ أولى البصائر في جانب العبادة ، التي يجب على الدعاة تفهمها ، وتفهيمها للناس ، لتصح عباداتهم ، ويسلم دينهم ..

البصيرة الثانية : هي البصيرة المتعلقة بواقع العبادة في حياة كثير من المسلمين ، حيث تحولت العبادة عند كثير من المسلمين إلى أعمال لاشعورية وطقوس لا أثر لها في حياتهم ، فضاعت بذلك كثير من الوظائف الفردية والاجتماعية للعبادات !!

فإن على الدعاة أن يُبصِّروا الناس بواقعهم ، كما يبصرونهم بواجبهم ، وإذا كان الأصل في المسلم أن تنقلب عاداته إلى عبادات ، فإن واقع المسلمين اليوم حول عبادات كثير منهم إلى عادات !

وفرق كبير أيها الإخوة والأخوات بين أن يعتاد المرء العبادة ، فتصبح جزءًا مهمًّا من حياته وسلوكه ، وطابع تحركه ..وبين أن تغلب عليها العادة ، فتفقدها صفة العبادة ، وتحولها عن وظيفتها ، وتعرضها بعد ذلك للتغير والزوال !

ويرى المتتبع لهذه الظاهرة في حياة الناس : أنها عمَّت الكبار والصغار ، والنساء والرجال ، والأفراد والجماعات .. إلا من رحم الله كما أنها شملت جلَّ العبادات ، على مختلف أشكالها ، وتفاوت درجاتها !!

فلم يقتصر أثرها على بعض النوافل والطاعات ، ولا على بعض النوافل والشعائر ، بل تعدَّاها إلى كثير من الواجبات الأساسية والأركان الإسلامية !

فبعد أن كان المرء يحسب للفظ (الشهادتين) كل حساب ، ويشعر وهو يتلفظ بها بالخشوع والخضوع .. أصبح يكررها مئات المرات ويجعلها وردًا من أوراده ، دون أن تترك في نفسه أثرًا ، ولا في سلوكه مظهرًا .

فكم من مستغفر للّه ﷻ ، وهو متلبس بمعصيته ، مصر على مخالفته ، لا يجاوز الاستغفار لسانه !

وكم من مسبح وحامد وشاكر للّه ﷻ بلسانه ، وهو غافل عن نعمه ، ومستعمل لها في غير مرضات ربه !!

وكم من تال للقرآن والقرآن يلعنه !!

والصلاة التي كانت قرة عيون المؤمنين ، ومعراج المتقين ، أصبحت عند كثير من المصلين عبارة عن حركات منتظمة ، تفتقد الخشوع والطمأنينة ، وتتجرد عن الفائدة والتأثير !

والزكاة التي شرعت طهرة للقلوب من حب المال ، وتزكية للنفوس من طغيانه ، أصبحت عند كثير من المؤدين لها ضريبة من الضرائب ، يحتال عليها ، ويُتثاقل عن دفعها !!

وشهر رمضان الذي كان مدرسة للتقوى والصبر ، ومعراجًا للروح والفكر .. أصبح شهر طعام وشراب ، وشهر تلذذ وسَمَر !!

ومناسك الحج التربوية الجامعة ، أصبحت عند كثير من الحجاج أعمالًا لا شعورية ، تفتقد وظيفتها في النفوس ، وتتجرد عن معانيها .. فترى الحاج متقيدًا بمحظورات الإحرام ، وهو متلبس بمحظورات الإسلام !

والحجاب الذي كان مظهر العفة والحياء ، ورمز الصيانة والنقاء .. أصبح عند كثير من المسلمات عبئًا ثقيلًا يُتفنَّنُ في إزاحته وتشويه حقيقته ، وكم من مصلية تُحكم حجابها للصلاة ، وتتساهل به خارج الصلاة !!

وقل مثل هذا في كل شعيرة من الشعائر التعبدية ، وفي كل عمل دعا إليه الإسلام ، ولا يزال في المسلمين من يتمسك به ، أو يدعو إليه .

أيها الإخوة والأخوات : أذكر موقفًا قديمًا مر بي مع بعض الأصحاب والأحباب ، حيث كنت معهم في انتظار أذان المغرب ، للإفطار على الرطب وماء زمزم في فصل الصيف - كما يفعل كثير من الصائمين - وذلك في المسجد النبوي الشريف .

فما أن نادى المؤذن (الله أكبر) حتى بادرنا جميعًا إلى إجابته ، وتناول الرطب للإفطار ..

فإذا بأحد الأحباب يأكل التمرات ، ويرفع صوته بدعاء الإفطار ، قبل أن يتناول الماء ويقول : (اللَّهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله) - كما ورد في الحديث الشريف - ثم أسرع إلى شرب الماء ، فأمسكت بيده سائلًا ، لم تشرب ؟ وأنت الذي أعلنت قبل لحظات أنه ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ؟ هل تغير الأمر ، أم لم تكن صادقًا مع الله فيما تخاطبه به ؟

فتعجب واستنكر الاعتراض عليه ، وقال : أليس هذا الوارد عن الرسول ﷺ في مثل هذا الموقف ؟

قلت بلى ، ولكن : أما كان بإمكانك أن تتريث لحظات قبل الدعاء ، وتشرب الماء ، وتشعر بالريِّ ، وذهاب الظمأ ، ثم تدعو الله وتشكره حقيقة على النعمة التي استشعرتها !! بدلًا من أن تخاطبه بما يخالف واقعك ، ويكذب فعلك ! فتنبه وتبصر .

أيها الإخوة الكرام : إننا كثيرًا ما نقع في مثل هذا الخطأ ، ونتلبس بمثل هذا التناقض في كثير من عباداتنا وأعمالنا ، فيضعف أثر هذه العبادة في نفوسنا من حيث لا نشعر !!

فإنه بقدر يقظتنا ونحن نمارس العبادة ، وبقدر المطابقة بين سلوكنا وأقوالنا نقطف تلك الثمرات ، ونتيقظ من تلك الغفلات ..

لقد كان أسلافنا متنبهين يقظين في كل عبادة من عباداتهم ، واعين لما يقرأون ويذكرون ، فاهمين لكل لفظة معناها ، ومستشعرين في كل حركة مدلولها .. ومن هنا كانت محبتهم للعبادات ، وكان حرصهم عليها ، ومن هنا استقام سلوكهم ، وصلحت حياتهم ..

وإليكم قصة عالم من العلماء ، أحد تلاميذ الإمام (عرفان بن أحمد الشهيد) رحمه الله ، أحد كبار علماء الهند ، ذكرها الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله في كتابه

(الأركان الأربعة) وهو من خير الكتب المعينة على تصحيح مفاهيم العبادة ، ومعالجة واقعها .. خلاصتها :

أن شيخًا كبيرًا وعالمًا ربانيًا ، أصيب بمرضٍ أعجز الأطباء في بلده ، وعانى منه الشيخ ما عانى ، حتى دُل على طبيب متخصص في ذلك في بلد بعيدة عن بلده ، فاصطحبه أحد تلامذته إلى ذلك الطبيب ، وقطعوا إليه المسافات ..

فلما وصلوا إلى عيادته ، وجلسوا ينتظرون دورهم في الدخول عليه ، خرج هذا الطبيب الذي قصدوا إليه من غرفته ، ومارس عملًا من أعمال الشرك والجهل أمام الناس ، وعاد إلى غرفته ، فسأل الشيخ عن هذا الرجل الذي فعل ذلك الفعل ، أهو الطبيب الذي جئنا إليه ؟ قال : نعم .

فتغير وجه الشيخ ، وأمر تلميذه بالانصراف عنه ، والعودة إلى بلده معرضًا عما جاء من أجله ..

فاستغرب منه تلميذه ذلك الموقف ، وسأله عن سببه ؟ فقال : أما رأيت ما عمل ؟ فقال التلميذ : ياشيخ ، لَنا طبُّه ، وعليه حماقته وجهله ..

فقال الشيخ : يا بني : كيف بي إذا وقفت الليلة في صلاة الوتر ، وقلت في دعاء القنوت فيها : (وأخلع وأترك من يفجرك !) لا ، لا أريد أن أكذب على ربي ، وعاد فعلًا ..)

هكذا أيها الإخوة الأكارم ، تفعل اليقظة في قلوب الصالحين ، وتؤثر في سلوكهم ، فإن على الدعاة إلى اللّه ﷻ أن يُعمموا هذه اليقظة في نفوسهم ، ويرسخوها في قلوب المدعوين من حولهم ، لتعود للعبادة مكانتها ، ولتظهر على الناس آثارها ..

أسأل اللّه ﷻ أن يرزقنا مثل هذه اليقظة ، وأن يجنبنا الغفلة عنه في جميع أحوالنا ، إنه سميع مجيب ..

البصيرة الثالثة في جانب العبادة : وتكمن في ضرورة تبصير الناس بحاجتهم إلى عبادة اللّه وضرورتها لهم ، ليزيد حرصهم عليها ، وتمسكهم بها ، ولا يتصورونها عبئًا ملقًى على ظهورهم .. فكثيرًا ما يتعامل بعض الناس مع

بعض العبادات الربانية ، ولاسيما الشعائر التعبدية ، معاملتهم مع واجب ثقيل على نفوسهم ، بدلًا من تعاملهم معها ، كضرورة حياتية لهم ، أو حاجة أساسية من حاجياتهم !! لذا كان من واجب الدعاة إلى اللّه ﷻ أن يُعنوا بتبصير الناس بهذه الضرورة ، وإرشادهم إلى هذه الحاجة ، ليحسنوا التعامل معها ، وينزلوها المنزلة اللائقة بها .

أيها الإخوة والأخوات : لعل مما يساعد على الوصول إلى هذه البصيرة ، تعريف الناس بطبيعة العبادة في الإسلام ، وتحليل عناصرها المكونة لها ، ذلك لأن جهل المرء بشيء يزهده فيه ، ويجعله غير حريص عليه ، ولاسيما إذا كلفه هذا الشيء نوعًا من الجهد ، وشيئًا من المشقة ..

فإذا عرف الإنسان عناصر العبادة ، وعلم أنها تتكون من عناصر ثلاثة مهمة ، وهي الرقي الروحي ، والتأمل والتفكير ، والخضوع الجسدي الإرادي ، واكتملت في نفسه ووعيه هذه العناصر ، ذاق حلاوتها ، ولمس آثارها ، وحرص عليها بدافع ذاتي ، أكثر من حرصه عليها بوازع خارجي ..

ولنأخذ على ذلك مثلًا من (الصلاة) أم العبادات ، وعمود الدين .. فإن عنصر (الرقي الروحي) فيها متمثل بتعلقها بجانب القلب والروح ، الذي يُشعر المرء بصلته بخالقه ، ويقوي فيه جانب الروح على جانب الجسد ، فتسمو روحه على جسده ، ويرجح فيها جانب الخير على جانب الشر .

كما أن عنصر (التأمل والتفكير) فيها متمثل بتعلقها بجانب العقل والفكر ، الذي يدفع المرء لإعمال عقله ، والتعرف على خالقه ، وحقيقة نفسه ، فيشعر دائمًا بعبوديته للّه ، وافتقاره إلى مولاه ، يعتمد عليه ، ويستعين به ..

وإن مما يغذي هذا العنصر في الصلاة ، القراءة فيها وفي خارجها ، والتفكر في معانيها ،كما يتجلى في الدروس التي يقتبسها الفكر من أعمال الصلاة وحركاتها ، وتفهم الحكم الشرعي من مشروعيتها .. وهكذا في غيرها من العبادات .

ومن هنا ، جاء عن ابن عباس ﵄ أنه قال : (ليس لك من صلاتك إلا ما

عقلت منها) ، وجاء في المسند [١] مرفوعًا : « **إن العبد ليصلي الصلاة ، ولم يكتب له إلا نصفها ، أو ثلثها ، أو ربعها .. حتى بلغ عشرها** » .

وروى الترمذي وغيره مرفوعًا : « **إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل** » [٢] .

هذا عنصر التأمل الفكري ، أما عنصر (الخضوع الجسدي الإرادي) فيتمثل في الجانب المتعلق بجانب الجسد وحركاته ، الذي يُمرّن العبد على الطاعة والاتباع لكل ما أمر الله به ، أو نهى عنه ، ويدفعه إلى العمل الصالح ، ويحجزه عن العمل القبيح . فإنه بهذا الخضوع الإرادي ، يتميز عن غيره من المخلوقات ، التي تخضع خضوعًا جبليًا فطريًا ..

ويظهر هذا جليًا في الركوع والسجود ، والقيام والقعود في الصلاة ، وفي جميع أعمالها وحركاتها .. كما يظهر في غير الصلاة في معظم مناسك الحج وأعماله ، من تجرد ، وطواف وسعي ، ووقوف ورمي ، كما يظهر في الإقدام على الإنفاق في الزكاة والصدقات ، وفي الإمساك عن الطعام في الصيام .

فإنه لايمكن أن تتجرد عبادة من العبادات عن هذه العناصر الثلاثة جميعها ، وقد يبرز عنصر منها أكثر من غيره في عبادة دون أخرى ، وإلا أصبحت العبادة بدونها (عادة) أو عملًا لا شعوريًا أشبه ما يكون بعمل الحيوان وحركة الجماد .

ومن هنا نصل أيها الإخوة الكرام إلى أن العبادة في الإسلام ، ليست مشاعر نفسية غريزية ، ولا حركات جامدة لاشعورية ، وإنما هي : رقي روحي ، وتأمل وتفكير ، وخضوع وانقياد .

فهي أشبه ما تكون بمدارس تربوية ، تتنوع مناهجها ، وتختلف أساليبها ، وتربي هذا الإنسان ، وتدربه على السير في الطريق المستقيم ، الذي رسمه له خالقه ، وتهذب له غرائزه وشهواته ، وتوجهها في الطريق الأقوم .. فإذا استطاع الدعاة أن يصلوا بالناس إلى هذا التحليل لعناصر عبادتهم لله ،

---

(١) هو في المسند بلفظ مقارب ، رمز له في (الفتح الرباني) : أبو داود والنسائي وابن حبان والبيهقي ، قال : وإسناده جيد (١٣٨ - ١٣٩) .

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٥٦٣) .

أشعروهم بحاجتهم إليها ، وضرورة مشروعيتها لهم ..

وتتجلى هذه الضرورة وتلك الحاجة الماسة في ثلاث جوانب أساسية هي :

١ - جانب يتعلق بالله ﷻ وصفاته .

٢ - جانب يتعلق بطبيعة الإنسان .

٣ - جانب يتعلق بطبيعة العبادة نفسها .

أما الجانب المتعلق بالله ﷻ وصفاته : فإن من المعلوم أن لكل اسم من أسماء الله ﷻ وصفاته ، أثرًا في هذا الكون ، ودلالةً تدل عليه .

ولا يمكن أن تبرز آثار جميع هذه الأسماء والصفات ، إلا بمخلوقات تمارس العبادة للّه ، وتخضع له ، وتستعين به ، وترغب بعطائه ، وترهب عقابه .. لذا كان من أنواع العبادة : الدعاء بهذه الأسماء ومناجاة اللّه بها - كما سبق أن أشرت إلى ذلك في البصيرة العقدية الثالثة - ومن هنا جاء الترغيب بإحصاء أسماء اللّه تعالى وحفظها .

وقد أشار الإمام ابن القيم - رحمه اللّه تعالى - إلى هذا الجانب من جوانب ضرورة العبادة للعباد ، فقال : (فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها ، إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب ﷻ ولم يعطلها ، وعرف معنى الإلهية ، وحقيقتها ، ومعنى كونه إلهًا ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه فباطل ، بل أبطل الباطل ، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له ، وأن العبادة مُوجبُ إلهيته ، وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات ، وكارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود ..) [1] .

أما الجانب المتعلق بطبيعة الإنسان : فإن الإنسان كما نعلم مخلوق مكلف متميز ، ضعيف قاصر ، مركب من روح وجسد .. فمن حيث كونه مخلوقًا : يتجلى فيه عنصر الخضوع والطاعة لخالقه . ومن حيث كونه مكلفًا : تتجلى

(١) مدارج السالكين ، لابن القيم (١ / ١١٠) .

حاجته إلى بيان ما كلف به واستعداده للقيام بالوظيفة التي كلف بها وهي العبادة . ومن حيث كونه ضعيفًا قاصرًا : تظهر حاجته إلى العون والتقوية من القوي ، وإلى التوجيه والإرشاد من العليم الخبير .. ومن حيث كونه مركبًا من روح وجسد : تتجلى حاجته إلى تغذية كلٍّ من الجانبين ، وضرورة إعطاء كل جانب حقه .

وإلى هذه الحاجات مجتمعة أشار إبراهيم عليه السلام وهو يناقش قومه في عبادة الأصنام ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (١) .

أما الجانب المتعلق بطبيعة العبادة : فإن حاجة الإنسان المركب من الجسد والروح ، ومن عقل وفكر ، ومن فطرة على الخضوع والتذلل ، إلى العبادة المكونة من العناصر الثلاثة السابقة قائمة مسلمة .. فإذا كان الغذاء المادي ، يسد حاجة الإنسان الجسدية ؛ فإنه لا يسد حاجته الروحية والفكرية والفطرية إلا عبادة الله عز وجل .

ومما يؤكد هذه الضرورة ، واقع البشرية حال ابتعادها عن عبادة الله أو تجاهلها لها ، أو انحرافها عنها .. كما يظهر جليًا من أحوال الناس في زمن الفترة بين الرسالات ، وفي عصور الجاهليات القديمة والحديثة على السواء ، حيث تخبطوا في شؤونهم كلها فاختلت موازينهم ، وفسدت أخلاقهم ، وأصبح المعروف فيهم منكرًا والمنكر معروفًا .

وفي بيان هذه الحاجة إلى العبادة ، وتحليلها تحليلًا دقيقًا ، يقول العلامة الدهلوي رحمه الله : (فإن قيل : من أين وجب على الإنسان أن يصلي ، ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول ؟ ومن أين حرم عليه الزنا والسرقة ؟ .

فالجواب : وجب عليه هذا كله ، وحرم عليه ذلك : من حيث وجب على البهائم أن ترعى الحشيش ، وحرم عليها أكل اللحم ، ووجب على السباع أن

---

(١) الآيات (٧٨ - ٨٢) الشعراء .

تأكل اللحم ولا ترعى الحشيش ، ومن حيث وجب على النحل أن يتبع اليعسوب .

إلا أن الحيوان استوجب تلقي علومها ، إلهامًا جبليًا ، واستوجب الإنسان تلقي علومه كسبًا ونظرًا ، أو وحيًا أو تقليدًا) [١] .

أيها الإخوة والأخوات : إن على الدعاة أن يتفهموا هذه الحاجات ، ويقفوا على هذه الضرورات ، ليبصروا الناس بها ، ويشعروهم بضروريتها .

البصيرة الرابعة : وتكمن في ضرورة تبصير الناس بوظائف العبادة الفردية والاجتماعية ، وآثارها العظيمة في الفرد والمجتمع ، وذلك ليزيد حرصهم عليها وتمسكهم بها ، ويحاسبوا أنفسهم على التقصير فيها .

فإن كثيرًا من الناس يزهدون فيما هو نافع لهم ، إذا ما جهلوا نفعه ولم يلمسوا فائدته ..!

أيها الإخوة والأخوات : يمكننا تفصيل وظيفة العبادة في وظيفتين : فردية . واجتماعية :

أماالوظيفة الفردية : فتتجلى في جانبين هما :

أ - جانب يتصل بعلاقة العبد بالله ﷻ خالقه .

ب - جانب يتصل بعلاقة العبد مع نفسه .

أما الجانب الأول : فهو (تحقيق عبودية الإنسان لله ، وتقريبه منه) فإن العبادة تقوي صلة الإنسان بخالقه ، وتنمي الحب بينه وبين ربه ، وتؤهله لحب الله له ، وتشعره برضا الله عنه .

فليست العبادة كلمة تقال ، ولا طقوسًا مجردة تؤدى ، ولا حالًا تعرض وتزول ، وإنما هي اتباع وخضوع نابع عن حب لله ، وشعور بالحاجة إليه .

وإلى هذا المعنى يشير قول الحسن البصري رحمه الله : (ليس الإيمان بالتمني ، ولابالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل) .

ويؤكد هذا المعنى قول الله ﷻ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

---

(١) حجة الله البالغة ، للعلامة الدهلوي ، (١ / ٥٠) .

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) .

ومن هنا كانت العبادة في الإسلام سبيلًا لنيل حب الله وبلوغ رضاه .. ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وجاء في الحديث الشريف الصحيح : « ومَا تَقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيء أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِن اسْتَعَاذَني لأُعِيذَنَّهُ » (٣) .

هذا عن وظيفة العبادة في الجانب المتعلق بالله سبحانه .

أما الجانب الثاني المتعلق بالعبد نفسه : فإن العبادة أيها الإخوة الكرام تهذب للمرء نفسه وتزكيها ، وترقي له روحه وتنميها ، وتوسع له أفقه وتفكيره ، وتصحح له سلوكه وتنقيه .

وكثيرًا ما أشارت النصوص الشرعية إلى هذه الوظيفة الفردية للعبادة ولاسيما في الشعائر التعبدية ، فقد قال ﷻ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم

---

(١) الآية (١٧٧) البقرة .
(٢) الآيتان (٣١ - ٣٢) آل عمران .
(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) .
(٤) الآية (١١٤) سورة هود .
(٥) الآية (٤٥) العنكبوت .

مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

كما جاء في الأحاديث الشريفة إشارات كثيرة إلى وظائف العبادة الفردية في حياة الناس ، من ذلك حديث : « فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ » (٢) ، وجاء : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا » (٣) .

فهذه النصوص الشرعية وأمثالها كثير ؛ تشير إلى أثر العبادة في الإنسان ، وتبين وظيفتها الفردية في العبد ، فتجعله إنسانًا مهذبًا ، متوازنًا في تحقيق متطلبات الروح والجسد قويًا لا يهاب ، صبورًا لا يجزع ، صدوقًا لا يكذب ، أمينًا لا يخون ..

أيها الإخوة والأخوات : هذه بعض الوظائف الفردية للعبادة ، أما وظيفتها الاجتماعية : فتتجلى في أثر تلك الوظيفة الفردية في المجتمع ، التي تجعل من الفرد عضوًا صالحًا في المجتمع يصلح بصلاحه من جهة ، والتي تعود على المجتمع عامة بالخير والنفع من جهة أخرى .

فما من عبادة في الإسلام ، فردية كانت أو جماعية ، إلا ولها أثر في المجتمع قَلَّ أو كَثر ، خَفي أو ظَهر .. وإن كانت الوظيفة الاجتماعية أو الآثار العامة تبرز أكثر وأكثر في العبادات الجماعية ..

فالصلاة : وهي عبادة (فردية وجماعية) في وقت واحد ، تصل العبد بربه ، وتقوي صلته به ، وتحقق عبوديته له ، ولها أيضًا آثار اجتماعية مهمة ، من ذلك : تنظيف سلوك الفرد والمجتمع ، وتنقيته من الفحشاء والمنكر ، وتوثيق صلته بأخيه المصلي معه في صلاة الجماعة ، وقد روي في الحديث الشريف : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ؛ لم يزدد من الله إلا بُعدًا » ، ومثل

---

(١) الآيات (١٩ - ٣٤) سورة المعارج .

(٢) رواه أبو داود ، في كتاب الزكاة ، رقم (١٣٧١) ، وابن ماجه في كتاب الزكاة ، رقم (١٨١٧) .

(٣) رواه النسائي بإسناد حسن ، انظر سنن النسائي ، كتاب الصوم ، رقم (٢٢٠١) .

هذا واضح كذلك في الصيام والزكاة والحج ..

والحجاب : وهو عبادة (فردية واجتماعية) تحفظ للمرأة كرامتها وعفتها وحيائها في نفسها ، الذي جبلت عليه من جهة ، وتميزت به على الرجال .

كما تحفظ المجتمع من الفتنة بالنساء التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » [١] .

فالحجاب يحفظ المجتمع من آثار النظرة المحرمة التي تفعل فعلها في قلوب الرجال ، وترهق أعصاب الشباب والمراهقين .. كما يحفظه من انتشار الفحشاء التي يُعد السفور والتبرج أكبر العوامل على وجودها وانتشارها .

وإن من الغفلة عن هاتين الوظيفتين للحجاب ، أو عن إحداهما ، وجد التساهل في الحجاب ، وانطلق بعض الناس يقول : إن المرأة الشريفة لا يلزمها الحجاب ولا يفيدها ، والمرأة الفاسدة لا يصلحها الحجاب ولا يحجزها عن الفساد ، فليس للمرأة حاجة إليه !! إلى غير ذلك من أوهام وأخطاء ..

ولو فهم الرجال والنساء على السواء حقيقة الحجاب في الإسلام ووظيفته ، ووقفوا على عظم آثاره الفردية والاجتماعية ، لما رأينا امرأة تتساهل في أمره ، ولا رجلًا يدعو إلى التهاون فيه .. ويقال مثل هذا في أي عبادة فردية أو اجتماعية من العبادات ، كالزكاة والصيام والجهاد ..

ولنعلم جميعًا أيها الإخوة الكرام : أن أي تضييع لجانب من جوانب هذه الوظيفة ، أو الغفلة عنها ، يعتبر تضييعًا لحقيقة العبادة ، وتحويلًا لها عن حقيقتها ..

ومن هنا جاء : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا » [٢] . وجاء : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه .. » [٣] .

---

(١) متفق عليه انظر صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، رقم (٤٧٠٦) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء، رقم (٤٩٢٣) .

(٢) أحمد في الزهد موقوفًا على ابن مسعود ، انظر (كشف الخفاء) للعجلوني (٢ / ٣٨٢) .

(٣) البخاري وأبو داود والترمذي ، انظر (جمع الفوائد) (١ / ٤١٥) .

وجاء : « رب قائم حظه من قيامه السهر ، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » (١) .

نسأل الله ﷻ أن يبصرنا بوظيفة العبادة في حياتنا ، وأن يذيقنا حلاوة عبادته ومناجاته .. وأن يغفر لنا غفلتنا وتقصيرنا فيها ..

البصيرة الخامسة : وتكمن في ضرورة تبصير الناس بحال النبي ﷺ مع العبادة ، وحال السلف الصالح ، وأسلوب تعاملهم معها ، ليلمسوا الفرق الكبير بين حالنا مع العبادة وحالهم ، وبين أثرها فينا وأثرها فيهم ..

أيها الإخوة والأخوات : يمكننا تناول هذه البصيرة في عدة نقاط ، منها :

١ - تعلق رسولنا ﷺ **بالعبادة ، وحرصه على الازدياد منها .**

٢ - تعلق الصحابة رضوان الله عليهم ، والتابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين بالعبادة ، وحرصهم على الازدياد منها .

أما النقطة الأولى : فقد روي عن النسائي وغيره بإسناد جيد ، قوله ﷺ : **« وجُعل قرة عيني في الصلاة »** ، كما روي عنه أنه كان يقول لبلال ﷺ إذا حان وقت الصلاة : **« أرحنا بها يا بلال »** .

وروى الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ﷺ قال : كان النبي ﷺ إذا كانت ليلة ريح شديدة ، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر ، كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلي .

وروى أبو داود في سننه : أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى .

ولاعجب أن يفزع المؤمن إلى الله وإلى بيته كلما حزبه أمر أو خاف من شيء لأنه لاملجأ ولامنجى من الله إلا إليه ، فيطمئن قلبه بذكر الله ، ويأنس بمناجاة الله .

أرأيتم أيها الإخوة الكرام : إلى رواد الفضاء كم يصيبهم الخوف والذعر إذا ما انقطع اتصالهم بمراكز التوجيه لسفينتهم في الأرض !! وذلك خوفًا من

---

(١) الطبراني وغيره ، وقال الحافظ العراقي : إسناده حسن ، وقال تلميذه الهيثمي : رجاله موثوقون ، انظر (فيض القدير) (٤ / ١٦) و(جمع الفوائد) (١ / ٤١٥) .

الضياع والأخطار التي تحدق بهم !

أرأيتم كيف تعود إليهم الفرحة والطمأنينة عندما يعود الاتصال ، ويصبحوا على صلة دائمة مستمرة بمراكز التوجيه !!

فكيف حال العبد الضعيف إذا بعد عن الله الخالق ، وكيف بالإنسان إذا انقطعت صلته بالله ﷻ .. ؟

وإذا كان رواد الفضاء يشعرون بتلك الطمأنينة والراحة عندما يتصلون ببشر مثلهم يوجهونهم في عملهم ورحلتهم !

ألا يجدر بالمؤمنين أن يشعروا بأكثر من ذلك ، عندما يتصلون بالله ، ويشعرون بقربهم منه ، وهو العليم الخبير ، والرحيم الحكيم ، والمنعم المتفضل !!

ومن هنا تأتي مشروعية صلاة الحاجة ودعائها ، وصلاة الاستخارة ودعائها ، حيث يقول فيه المستخير : (اللَّهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، فإنك تعلم ولا أعلم ، فأنت علام الغيوب .. إلى آخر الدعاء) ، ليبقى المؤمن مستريحًا مطمئن النفس .. ذلك لأن الإنسان خلق هلوعًا ، إذا مسه الشر جزوعًا ، وإذا مسه الخير منوعًا ، إلا المصلين ..

ومن هنا يشعر المؤمن وهو يقف بين يدي الله في الصلاة ، أنه قوي بقوة الله ، عزيز بعزته ، غني بغناه ، يناجيه يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما يشعر أنه بوقوفه بين يديه أيضًا ، يحاول أن يعبر عن شكره لله ﷻ على عظيم فضله وإنعامه ، حيث أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ..

ومن هنا نفهم معنى تعليل رسول الله ﷺ لحرصه على الصلاة ، وإطالة الوقوف بين يدي الله ﷻ فأجاب من استغرب قيامه حتى تورمت قدماه ﷺ بقوله : « **أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟** » [(١)] .

هذه أيها الإخوة الكرام حال رسول الله ﷺ مع العبادة ، وهو الذي غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر ، فما بالنا نحن ؟!! .

---

(١) متفق عليه ، انظر صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، رقم (١٠٦٢) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة ، رقم (٥٠٤٤) .

أما النقطة الثانية : والمتعلقة بحال الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان في تعلقهم بالعبادات : فأقول : كان حالهم رضوان الله عليهم أشبه بحال رسول الله ﷺ من حيث محبتهم للعبادة ، وتعلقهم بها ، ولاسيما بالصلاة وقراءة القرآن الكريم ؛ فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يصلي في بيته بعد العشاء حتى يطلع الفجر ، وأنه كان قليل النوم ، وكان يقول : إذا نمت في النهار ضيعت رعيتي ، وإذا نمت في الليل ضيعت نفسي ..

وكان ابنه عبد الله رضي الله عنه إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليله .

وروي عن عثمان رضي الله عنه أنه صلى بالقرآن كله في وقفة واحدة عند المقام .

وكان أويس القرني رحمه الله يجعل ليلة كاملة للركوع ، وليلة مثلها للسجود .

ومكث سعيد بن المسيب رحمه الله يصلي الفجر بوضوء العشاء خمسين سنة .

وكان عروة بن الزبير رحمه الله يقوم الليل بالقرآن كله ، ويقرأ ربعه في النهار ..

كما كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله لاينام في رمضان ، يصلي في الليل ، ويحصد بالنهار ..

وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يختم القرآن مرتين في يوم رمضان ، وكان يُسمى (الوَتَد) لكثرة صلاته ، ويسمع جيرانه بكاءه ، وكان يفرِّغ النهار كله للتعليم ، والليل كله للعبادة ..

وقد كان للإمام الشافعي رحمه الله في رمضان ستون ختمة كلها في الصلاة .

وكان للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة ، ثم جعلها ١٥٠ ركعة بعد المحنة وكان قد قارب الثمانين من عمره ..

إلى غير ذلك من أخبار كثيرة تعكس مدى تعلقهم بعبادة الله ، وتذوقهم لها ، وحرصهم عليها ، ومن أراد تفصيلًا وتحليلًا وتعليلًا لمثل هذه الظاهرة المنتشرة عند السلف ، فعليه بكتاب (إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة) للإمام أبي الحسنات ، محمد عبد الحي اللكنوي الهندي رحمه الله ، بتحقيق شيخنا الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله

وأختتم حديثي عن هذا الجانب ، بقصة عجيبة رويت عن الإمام عروة بن الزبير ﷺ ، حيث كان يومًا في بلاد الشام ، وأصيبت رجله بداء خطير ، نصح الأطباء معه باستئصال جزء من رجله خشية سريان المرض في جسمه كله ..

فلما أراد الأطباء إجراء هذه العملية الصعبة له ، عرضوا عليه شيئًا من المادة المخدرة (البنج) لتسكن عليه ألمه أثناء قطع العظم .. فأبى أن يأخذ شيئًا من ذلك ، وقال لأطبائه : دعوني أذكر الله ﷻ وأدخل في الصلاة ، فإذا صليت أنجزوا عملكم ، حيث أكون مستغرقًا في صلاتي مناجيًا ربي .

ففعلوا ذلك وهو في هذه الحال مطمئن خاشع لا يشعر بشيء ، حتى إذا ما أرادوا كيها بعد القطع بالزيت المغلي ، ارتعش رعشة ثم قام وحمد الله ﷻ على أنه لم يمش برجله هذه إلى معصية قط .

هكذا أيها الإخوة والأخوات : تفعل الروح إذا غلبت على مشاعر الجسد ، وهكذا يشغل الأنس بالله ﷻ المرء عما يحيط بالمرء في حياته .. مصداقًا لقوله ﷻ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ .. ﴾ وقد روى الإمام محمد بن المبارك في الزهد من حديث الحسن مرسلًا : (مثل الصلاة المكتوبة ، كمثل الميزان ، فمن أوفى استوفى) .

أسأل الله ﷻ أن يذيقنا حلاوة الإيمان ، وأن يجعل قرة أعيننا في الصلاة ، وأن يصلح أحوالنا جميعها ، إنه القادر على كل شيء .

★ ★ ★

الفصل الثالث

بصائر في جانب أصول الدعوة ومصادرها

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه المبين : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، سيد الدعاة والمرسلين ، الذي خاطبه ربه ﷻ بقوله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى .. ﴾ ، ورضي الله عن الصحابة والتابعين، الذين حملوا لواء الدعوة لهذا الدين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد :

فيا أيها الإخوة والأخوات : إن حديثنا هنا عن بصائر دعوية جديدة في جانب أصول الدعوة ومصادرها ، وقد جعلتها في أربع بصائر ، هي :

البصيرة الأولى : ضرورة أن تقوم الدعوة إلى الله على قواعد سليمة ، وأسس صحيحة ، ومبادئ قويمة ؛ لأن أي دعوة لا تقوم على هذا ، لهي دعوة باطلة لا تؤدي إلى خير .

وإن أي جهل بقواعد وأسس ومبادئ الدعوة ، يجعل الداعية يخبط خبط عشواء في دعوته ، فيضر من حيث يريد النفع ، ويسيء من حيث يريد الإحسان .

والدعوة الإسلامية أحق دعوة يجب أن يُعنى بأصولها ؛ لأنها دعوة العباد إلى الله ﷻ .

والطريق إلى الله لا يستغني السالك فيها ، والدال عليها عن هدي كتاب الله ، وعن سنة رسوله ﷺ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم هو الذي يهدي للتي هي أقوم ، ولأن السنة النبوية هي المحجة البيضاء التي من سار عليها لا يضل أبدًا ..

وإن مبادئ الدعوة الإسلامية ليست أمورًا اجتهادية متروكة إلى العقول البشرية لتضعها كما تشاء ، وإنما هي أحكام شرعية ، ومعالم ربانية ، نص عليها القرآن الكريم ، وأوضحتها السنة النبوية ، وحملها إلى الناس الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن تبعهم بإحسان .

وإن مجال الدعاة فيها محصور في صياغتها ، وأسلوب عرضها بالشكل الذي يقربها من العباد ، ويحببها إليهم ، ليقبلوا عليها ويتمسكوا بها ..

وأول ما يجب على الدعاة معرفته في هذا المجال : أن مصادر الدعوة الأساسية والتبعية تتلخص في خمسة مصادر هي :

١ - القرآن الكريم .

٢ - السنة النبوية الشريفة .

٣ - السيرة النبوية المطهرة .

٤ - سيرة الخلفاء الراشدين .

٥ - وقائع العلماء والدعاة في ضوء تلك المصادر .

كما يمكن إجمال الأدلة الدعوية ومصادرها في نوعين أساسين هما :

١ - الأحكام الشرعية المعتمدة على الأدلة الشرعية الأصيلة منها والتبعية ، كالكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح والاستصحاب وغيرها ..

٢ - التجارب العملية الصادرة عن العلماء والدعاة في ضوء تلك الأحكام الشرعية .

وإن مما أريد أن أؤكد عليه في هذه البصيرة ، أهمية سيرة الخلفاء الراشدين ، ووقائع العلماء العاملين من تلك المصادر ، وذلك لوضوح أهمية المصادر الثلاثة الأولى من جهة ، ولغفلة بعض الدعاة عن أهمية المصدرين الآخرين من هذه المصادر من جهة أخرى .

أما سيرة الخلفاء الراشدين التي أمرنا أن نتمسك بها كما نتمسك بسنة الرسول ﷺ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ .. »[1] .

فإن لهذه السيرة مكانة خاصة ؛ لأن أصحابها كانوا رضوان الله عليهم أقرب الناس إلى الرسول ﷺ وأفهمهم لأقواله وأفعاله ..

(١) الترمذي في كتاب العلم (٢٦٠٠) .

فكانوا إذا عرضت لهم قضية : نظروا في كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ، فإن وجدوا فيها شيئًا أخذوا به ، وإن لم يجدوا شاوروا من حولهم من كبار صحابة رسول اللّه ﷺ ، فكانت سيرتهم في حقيقتها امتدادًا طبيعيًا لسنة رسول اللّه ﷺ وسيرته ، وتطبيقًا عمليًا لمنهج اللّه ومنهج رسوله ﷺ .

ولعل من حكمة اعتبار سنتهم كسنة رسول اللّه ﷺ في الاتباع ، أن لا تقتصر أسوة المؤمنين على النبي المعصوم ﷺ ، وإنما تشمل خلفاءه الراشدين من بعده ، حتى لا يتوهم متوهم أن إمكانية تطبيق الإسلام تطبيقًا صحيحًا كاملًا لا يمكن إلا في زمن رسول اللّه ﷺ وتتوقف بوفاته ، فقامت الحجة بسنتهم وسيرتهم كما قامت بسنة رسول اللّه ﷺ إلى يوم القيامة .

أما وقائع العلماء والدعاة ، وتصرفاتهم في أمور الدعوة ، فهي مصدرٌ مهم أيضًا من مصادر الدعوة ، يعين الداعية على فهم المصادر السابقة ، واستنباط الأحكام منها ؛ لأنها تطبيقات عملية لمنهج اللّه ومنهج رسوله ..

إلا أن هذه الوقائع مع عظيم فائدتها ، فليست كسيرة الخلفاء الراشدين في المنزلة ، وإنما هي مصدر تبعي ، يستفاد منه في ضوء المصادر الأصلية السابقة .

ذلك لأنها اجتهادات بشرية تخطئ وتصيب ، فإذا أجمع العلماء على التعامل مع واقعة دعوية بشكل محدد ، كان عملهم حجة بسبب الإجماع ، وإن اختلفت آراؤهم واجتهاداتهم فيها ، كانت آراء اجتهادية غير ملزمة ، تنير الطريق لغيرهم - ولو أصابوا فيها أجرًا واحدًا - .

وقد أخطأ بعض الناس حين غفلوا عن أهمية هذا المصدر ، فزهدوا فيه وأعرضوا عنه ، مستغنين بزعمهم بالكتاب والسنة !!

كما أخطأ آخرون في إنزال هذا المصدر منزلة الكتاب والسنة المنزهين عن الخطأ ، تقديرًا بزعمهم للعلماء ، واحترامًا لآرائهم واجتهاداتهم ، وما ضاع هذا الدين إلا بين الغالي فيه والمقصر .

فليست الدعوة أيها الإخوة والأخوات نصوصًا جامدة ، أو أعمالًا وأحكامًا ثابتة ، وإنما هي بجانب النصوص الشرعية والأحكام الفقهية أفهام بشرية ،

واستنباطات علمية ، وموازنات دقيقة لا يحسنها إلا أهلها .

ومن لهذه الموازنات والأفهام ، إلا العلماء العاملون ، ورّاث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟

فقد جاء في الحديث الشريف : « **العلماء ورثة الأنبياء** » (١) .

ومن هنا : جاء تشبيه العلماء بالنجوم في السماء ، فقد روى الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « **إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء ، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم ، يوشِكُ أن تَضِلَّ الهُداةُ** » (٢) .

وإن أولى العلماء باستفادتنا من وقائعهم وتصرفاتهم فيها : الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ؛ لأنهم أعلم الناس بالمنهج الرباني والأسلوب الحكيم النبوي ، وذلك لصحبتهم لرسول الله ﷺ ومعايشتهم لسيرته الدعوية ، مما جعلهم خير الناس بعد الأنبياء ، وجعل لهم منزلة خاصة عند علماء الأمة ، حتى جعل بعضهم قول الصحابي حجة ودليلًا ..

ثم يأتي بعد الصحابة : التابعون لهم بإحسان من علماء القرون الأولى الذين أخذوا عن الصحابة واهتدوا بهديهم ..

ثم يأتي من بعدهم : علماء الأمة ودعاتهم على مختلف العصور الذين لا تخلو الأمة من أمثالهم - جزاهم الله عن المسلمين خير الجزاء - .

وإن كتب التراجم والسير حافلة بمثل هذه الوقائع والتجارب المفيدة .

ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام : أنه مع الاعتراف والتسليم بأولية وأهمية وقائع السلف ودعاتهم ، فإنه لا ينبغي للدعاة أن يزهدوا بوقائع علماء عصرهم ، وتجارب الدعاة المعاصرين ، فقد يكون فيها من الوقائع والأحداث ما يشابه وقائع العصر الذي يعيشون فيه ، وما هو أكثر مطابقة لها من وقائع المتقدمين .

---

(١) الترمذي في كتاب العلم (٢٦٠٦) .

(٢) انظر (الفقيه والمتفقه) (٢ / ٧٠) ، وقد روي هذا الحديث في المسند بسند فيه ضعف ، انظر مسند الإمام أحمد (٢ / ١٥٧) .

فكلما تقاربت العصور ، تشابهت الوقائع والأحداث ، والعلماء الموثوقون في كل عصر ، هم أدرى الناس باحتياجات عصرهم ، وبالأساليب النافعة فيه ، فلا يغني شيء عن شيء !!

البصيرة الثانية : هي البصيرة المتعلقة بالركن الأول من أركان الدعوة ، وأركان الدعوة ثلاثة هي :

١ - الداعي ٢ - المدْعو ٣ - موضوع الدعوة .

ونريد بالداعي : (المبلغ للإسلام ، والمعلم له ، والساعي إلى تطبيقه) .

ونريد بالمدعو : (من توجه إليه الدعوة) ، وهو الإنسان مطلقًا ، قريبًا كان أو بعيدًا ، مسلمًا كان أو كافرًا ، ذكرًا كان أو أنثى ..

ونريد بالدعوة : (الإسلام الذي يدعى الناس إليه) .

أما الركن الأول وهو (الداعي) : فتظهر أهميته من عدة جوانب :

١ - من جانب موضوعه الذي يدعو إليه ، فهو داعية إلى الله يدعو إلى رضائه وجنته .

٢ - من جانب وظيفته التي تعد أشرف الوظائف على الإطلاق ؛ لأنها عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٣ - من جانب أجره وثوابه ؛ فقد وعد الله الدعاة إليه بالأجر الكبير والفضل العظيم ، وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه : **« مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »** [(١)] .

وجاء في الحديث المتفق عليه : **« فَوَاللهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ »** [(٢)] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، رقم (٤٨٣١) .

(٢) البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، رقم (٢٧٢٤) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم (٤٤٢٣) .

أيها الإخوة والأخوات : لعل أهم ما يجب أن يتصف به الداعي إلى الله ﷻ ما يلي :

١ - **الإيمان بما يدعو إليه** : فإن بقدر إيمان الداعي بدعوته ، وتفهمه لضرورتها وحاجة الناس إليها ، ينجح في دعوته ، وبقدر ضعف إيمانه بها ، ونظره إليها بأنه مهمة ثانوية يتهاون فيها ، ويتكل فيها على غيره ، أو يعطيها فضل وقته ..!

٢ - **الاتصال الوثيق بمن يدعو إليه** : وهو الله ﷻ ؛ لأن الداعية أحوج الناس للعون والتوفيق من الله ، فلابد له من إخلاص النية له ، ومحبته والإكثار من عبادته وذكره ..

٣ - **العلم والبصيرة بما يدعو إليه** : لأن أهل العلم هم الذين يستطيعون القيام بحق الدعوة حق القيام ، وذلك بما أوتوا من ميراث رسول الله ﷺ ، ومن بصيرة بدينهم ، فما أكثر ما يسيء الجاهل إلى دعوته من حيث لا يشعر !! ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفيما فعله العابد الجاهل بالقاتل الذي أراد أن يتوب بعد قتله (٩٩) نفسًا ، عبرة وعظة .

ولا يعني هذا أن تقتصر الدعوة على أولي العلم من الناس ، فيتكل الناس عليهم فيها ! بل على كل مسلم أن يدعو على قدر علمه وفهمه ، وبحسب استطاعته ، فيدع ما لا يحسن إلى غيره ممن يحسن وهكذا ..

٤ - **العملُ بعلمه ، والاستقامة في سلوكه** : فإنه لا خير في علم بدون عمل ، وإن من أخطر ما يصاب به الدعاة : انفصال علمهم عن عملهم ! قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

وإن أقل ما يترتب على انفصال العلم عن العمل في الداعية في الدنيا : أن يقول المدعو : لو كان هذا صادقًا فيما يدعو إليه ، لطبقه على نفسه ، وعلى من يلوذ به أولًا ، وكان أسرع الناس إليه !!

---

(١) الآية (٩) سورة الزمر .

(٢) الآيات (٢ - ٣) سورة الصف .

أما في الآخرة : فيكفيه ما جاء في الحديث المتفق عليه : « **يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ : أَيْ فُلان : مَا شَأْنُكَ ! أَلَيسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيه ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ** » [(١)] .

٥ - **الوعي الكامل** : ونريد به : (إدراك الداعية ما يحيط بالدعوة) سواء كان :

أ - بواقع الدعوة ومتطلباتها في عصره .

ب - بواقع المدعوين من حوله .

ج - بواقع الداعية نفسه ، وما يحيط به من ظروف وأحوال ..

فإذا لم يَعِ الداعية هذه الأمور ، تخبط في دعوته ، وجر إليها النكبات والكوارث من حيث يريد الإصلاح ، شعر أو لم يشعر . لأنه على أساس هذا الوعي : توضع الخطط والمناهج ، وتحدد الأولويات ، وتعقد الموازنات ، وبالوعي تكتمل بصيرة الداعي بدعوته .

٦ - **الحكمة في الأسلوب** : والحكمة : وضع الشيء في محله ، فعلى الداعي أن يكون حكيمًا في أسلوب دعوته ، يختار لمن يدعوهم الأسلوب الحسن المناسب ، فيضع كل أسلوب في محله ، فالحكيم من يُحسن الاختيار ، قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [(٢)] ، وقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [(٣)] .

٧ - **التخلق بالخلق الحسن** : فعلى الداعية أن يجاهد نفسه على التحلي بالأخلاق الفاضلة ، وعلى التخلي عن الأخلاق السيئة ، فإن العِلمَ بالتعلُّم ، والحِلْمَ بالتَحلُّم ، وقد جاء في الحديث المتفق عليه : « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا**

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، رقم (٣٠٢٧) ، ومسلم كتاب الزهد والرقائق ، رقم (٥٣٠٥) .

(٢) الآية (٢٦٩) سورة البقرة .

(٣) الآية (١٢٥) سورة النحل .

أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَاركم لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا » (١) .

وكان آخر ما وصى به رسول الله ﷺ معاذًا حين أرسله إلى اليمن : « أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ » (٢) .

٨ - **إحسان الظن بالمسلمين** : فعلى الداعية أن يحسن الظن بالمسلمين جميعًا ، وأن يبني أحكامه ، فيهم على الظاهر ، ويَكِلَ أمر السرائر إلى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٣) .

وجاء في الحديث المتفق عليه : « إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث .. » (٤) .

وجاء أيضًا في حديث أبي داود : « حسن الظن من حسن العبادة » (٥) .

ولا يعني حسن الظن أيها الإخوة أن يغفل الإنسان عن الواقع من حوله ، وأن يسكت عن أخطاء الناس .. ولكنه يعني : أن يحمل أقوالهم وأفعالهم على الأصلح ..

٩ - **أن يستر على الناس عيوبهم** : فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

وجاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم : « لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٧) .

فإن الداعية في دعوته مثله مثل الطبيب في مهنته ، قد يطلع على بعض العورات ليعالجها ، فيجب عليه سترها ، وعدم فضح صاحبها ..

١٠ - **أن يخالط الناس حيث تحسن الخلطة ، ويعتزلهم حيث يحسن الاعتزال** : فإن من مستلزمات عمل الداعية مخالطة الناس لدعوتهم إلى الخير ، وأمرهم

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذي رقم (١١٦٢) .

(٢) رواه مالك في الموطأ باب حسن الخلق رقم (١) .

(٣) الآية (١٢) سورة الحجرات .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، رقم (٥٦٠٤) ومسلم ، كتاب البر والصلة ، رقم (٤٦٤٦) .

(٥) انظر (سنن أبي داود) رقم (٤٩٩٣) .

(٦) الآية (١٩) النور .

(٧) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، رقم (٤٦٩٢) .

بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » (١) .

إلا أن للخلطة شروطًا وآدابًا بينها العلماء لابد من ملاحظتها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ (٢) .

وقال أيضًا : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٣) .

كما بين رسول الله ﷺ أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ، كان من وراء الخلطة غير المنضبطة لأصحاب المعاصي والمنكرات ..

ولا يخفى على عاقل ما يفعله الأطباء المعالجون للمرضى ، من الاحتياطات ، والتحفظ من أمراض الناس مخافة التلوث بها وانتقالها إليهم .

وهذا لا يتحقق للداعية إلا بموازنة دقيقة بين طبيعته ووظيفته ؛ لأن من طبيعة الداعي الابتعاد عن المنكرات ، والنفور من المعاصي وأصحابها ، كما أن من وظيفة معالجة العاصين ، ومخالطة أهل المنكرات لأمرهم ونهيهم ..

مثله في ذلك مثل الطبيب الذي من طبيعته النفور من الأوساخ والجراثيم والميكروبات ، إلا أن من وظيفته الاقتراب منها ، ومخالطة المرضى والمصابين لمعالجتهم ..

فكما أنه لا بد للطبيب الخبير العاقل من أن يخالط المرضى بتيقظ وحذر ، فإن على الداعية أيضًا أن يخالط أصحاب المعاصي بحذر شديد ، حتى لا يصيبه شرهم ، ويسلم من عدواهم ..

ولعل الضابط لهذه المخالطة والمعايشة لأصحاب المنكرات والمعاصي ، يكمن في استمرار يقظة الداعي لهذه المنكرات وخطرها ، وبغضه لها ونفوره منها ،

---

(١) انظر سنن ابن ماجه رقم (٤٠٢٢) ومسند أحمد (٤٧٨٠) .

(٢) الآية (٦٨) الأنعام . (٣) الآية (١٤٠) النساء .

وعزمه على معالجتها وتخليص الناس منها ، مخططًا لذلك ومتخيرًا من الوسائل والأساليب النافعة ما يحقق له غايته ..

فإذا استمرت هذه اليقظة ، ودام معه هذا الهم ، سلم من خطر هذه المخالطة ، وكان من المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم .

أما إذا غفل عن هذا الأمر ، واستمر في خلطته لأصحاب المعاصي ، هانت عليه مع الأيام معاصيهم ، وأصبح شريكهم فيها من حيث يشعر أو لم يشعر ..

وإلى هذا الضبط يشير قوله ﷺ في الحديث الذي أشرت إليه سابقًا في بني إسرائيل : « **كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ** .. » (١) .

١١ - ومن صفات الداعية أيضًا : أن ينزل الناس منازلهم ، ويعرف لأهل الفضل فضلهم : فقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها : أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنْزل الناس منازلهم (٢) .

وجاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما : « **ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا** » ، وروى أبو داود أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « **إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المقسِطِ** » .

وإذا كانت هذه الصفات والفضائل مطلوبة من كل مسلم ، فإنها تتأكد على الداعية أكثر من غيره ، فإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ، أهلُ الفضل ..

١٢ - وإن من صفات الداعي أيضًا : أن يكون متعاونًا مع غيره من الدعاة ، يشاورهم ويتناصح معهم : قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ (٣) .

وإن العمل الدعوي من أعظم أوجه البر الذي يتطلب التعاون والتشاور

---

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذي ، وقال عنه : حديث حسن ، انظر سنن أبي داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٥٠) .

(٢) رواه الإمام مسلم تعليقًا في مقدمة صحيحه . (٣) الآية (٢) المائدة .

والتناصح ، فإن من صفات المؤمنين عامة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [1] ، وقد جاء في الحديث الشريف : « الدينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » [2] .

وماذا يضير الداعية الحق من مشاورة الآخرين والتعاون معهم إذا كان يرجو من دعوته الله واليوم الآخر ؟

وماذا يحجزه عن تقديم النصح لهم ، إذا كان يريد الخير ويدعو إليه ؟

اللهم إلا إذا كان داعية لنفسه ، أو داعية لجماعته وحزبه !! قبل أن يكون داعية إلى الله !! وقد سمعت قديمًا من العالم الرباني والداعية المجاهد الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله يقول : (ما أضر بالدعوة من شيء مثل ما أضر بها (الأَنَا) الفردية و (الأَنَا) الجماعية) .

فقد آن للدعاة إلى الله تعالى أن يخرجوا عن أنانيتهم الشخصية وأنانيتهم الجماعية ، وأن يكونوا دعاة إلى الله إخوانًا متعاونين فيما بينهم ، متشاورين متناصحين ..

١٣ - وإن من صفاته أيضًا : الاستشعار الدائم بأنه في موقف القدوة الذي يتطلب منه الحرص على الكمال ، والترفع عن النقائص ، فالقدوة هو الذي يدعو الناس بحاله قبل قاله ، وبسلوكه قبل لسانه ..

وإنه بقدر ما يستذكر الداعية أنه في موقف القدوة للآخرين ، يدفعه هذا الاستذكار إلى الترفع عن الدنايا ، والحرص على الكمالات .

وبقدر ما يغفل عن هذا المعنى ، يتساهل في سلوكه ، ويكون كغيره من الناس ، ولكم تساهل بعض الدعاة في هذه الصفة ، فقصروا في الكمالات واقتصروا على الواجبات بزعمهم أنها تكفي للنجاة ، مستدلين بموقف الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ مسترخصًا ، متخففًا من بعض التكاليف الشرعية ، فأقسم أنه لا يزيد على الفرائض ولا ينقص منها ، فقال عنه ﷺ :

---

(١) الآية (٣٨) الشورى .

(٢) رواه مسلم وغيره ، انظر (صحيح مسلم) رقم (٥٥) .

« أفلح إن صدق »[1] .

وقد غفل هؤلاء عن أن مثل هذا الأعرابي لا يمثل موقف القدوة ، ولا يمثل موقف عامة الصحابة الكرام الذين كانوا سابقين في الخيرات ، حريصين على الفضائل والكمالات حرصهم على الفرائض والواجبات ، الذين يعكس حالهم لنا حالَ أولئك الفقراء الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ قائلين شاكين : (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى ..) متطلعين إلى فضائل يعملونها تسد مسد إنفاق المنفقين ، وتصدق المتصدقين ، فدلَّهم الرسول ﷺ على أذكار يقولونها ، فلما سمع الأغنياء ذلك ، تسابقوا إلى تلك الأذكار ، وحرصوا عليها حرص هؤلاء الفقراء .. وجاء الفقراء ثانية إلى رسول الله ﷺ يشكون حالهم ويقولون : لقد فعل إخواننا الأغنياء (أهل الدثور) مثل فعلنا ، فبقوا لنا سابقين ، فكان الجواب منه ﷺ : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[2] .

هكذا أيها الإخوة والأخوات يتطلب موقف القدوة من الدعاة ، وهكذا يتصرف الدعاة أمام كثير من أبواب الخير ، فلا يزهدون في كثير ولا قليل ، ولا يضعفون أمام صعب أو سهل ، فتكون دعوتهم إلى الخير قولًا وعملًا ، يشدون بسلوكهم الضعفاء ، ويرفعون من هِمَم الناس ، فيقوى بقوتهم الضعيف ، ويقدم بإقدامهم المتردد ..

البصيرة الثالثة : وهي البصيرة المتعلقة بالركن الثاني من أركان الدعوة ، ألا وهو (المَدْعو) .

ولعل من أولى البصائر المهمة في هذا الجانب :

١ - أن الدعوة كما تكون للكافر إلى دين الإسلام ، تكون للمسلم أيضًا للتحسين من إسلامه ، والرفع من مستوى إيمانه .. فإذا كان الكفرة المدعوين أصنافًا وأنواعًا ؛ فإن المسلمين المدعويين أيضًا أصناف وأنواع .

وقد أشار القرآن إلى تصنيف ثلاثي للمسلمين ، فقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا

---

(١) انظر صحيح البخاري (٤٤) .

(٢) متفق عليه . انظر صحيح البخاري (٧٩٨) وصحيح مسلم (٥٩٥) .

ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (١) .

وهذه الأصناف الثلاثة موجودة في أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعًا .

ومن هنا : كان من البصيرة الدعوية أن لا تعامل هذه الأصناف معاملة واحدة ، وإنما تكون دعوة كل صنف بحسب حاله ، وموقعه من الاستجابة إلى الحق والالتزام به ..

فيُدعى السابق بالخيرات إلى الازدياد من الخيرات والمبرات ، والتحقق بالتقوى ، وهذا ميدانٌ فسيح .. لا نهاية له ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) . كما يدعى الظالم لنفسه إلى الرجوع عن فسقه وفجوره ، والإقلاع عن معاصيه ، وإلى الالتزام بأمر الله وحكمه ، والتوبة من ظلمه لنفسه ..

ويدعى الصنف الثالث : (المقتصد) إلى الثبات على الطاعة ، وتجنب المعصية ، كما يدعى إلى الترقي بحاله إلى حال المتقين السابقين بالخيرات .. كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

كما يُدعى المسلمون الضالون أي : الذين وقعوا في أي شيء من الضلال العقدي إلى تصحيح عقائدهم والرجوع عن ضلالهم ، قبل دعوتهم إلى الأحكام الفرعية ، والمسائل الجزئية ، فتوضح لهم العقيدة الصحيحة ، وتناقش لهم شبهاتهم ، فإذا ثابوا إلى الصواب والهدى ، كانوا من أحد الأصناف السابقة .. وعوملوا معاملة تلك الأصناف .

---

(١) الآية (٣٢) سورة فاطر .

(٢) الآية (١٠٢) سورة آل عمران .

(٣) الآية (٥٣) سورة الزمر .

٢ – كما أن من البصيرة الدعوية : أن يفرق في أسلوب دعوة الكافر بين الأصناف التالية :

أ – صنف الجاحدين الملحدين .

ب – صنف المشركين والوثنيين .

ج – صنف المرتدين .

د – صنف أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

هـ – صنف المنافقين .

فيدعى هؤلاء جميعًا إلى الإسلام والإيمان كلًّا بما يناسبه من أسلوب ، فإن استجابوا لذلك دعوا إلى غير ذلك من أعمال : كالصلاة والصوم ، والزكاة والحج ..

ومن هنا جاء توجيه الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حينما أرسله إلى اليمن داعيًا ، فقال : (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَاب ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَة تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (١) .

٣ – كما أن من البصيرة في جانب المدعو : أن يعرف الداعية حق المدعو عليه ، كما يعرف واجبه .

فإن للمدعو حقوقًا ، كما أن عليه واجبات ، وإن من حق المدعو أيًا كان نوعه وصنفه : أن يُقصَدَ ويُدعى ، أو يُرسَلَ إليه ، وأن لا تكون دعوته عرضًا أو مصادفة ، كما أن من حقه أن يُحرص عليه – مهما كان حاله ومستواه – فلا يستهان بأحد مهما كان شأنه !

فقد أرسل اللّه ﷻ رسله إلى الناس : إعطاء لحقهم من جهة ، وإقامة للحجة

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الزكاة ، رقم (١٤٩٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، رقم (٢٧) .

عليهم من جهة أخرى .

ومن هنا : قرر الشرع عدم تعذيب قوم حتى تُقام الحجة عليهم ، ويُعطوا حقهم في الدعوة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١) .

فقام رسول الله ﷺ بوفاء هذه الحق حقَّ القيام ، فبشَّر وأنذر ، وخرج أصحابه من بعده بالدعوة ، فنشروا هذا الدين في الآفاق ، وأقاموا الحجة على الناس كافة ، فإن الأمة المسلمة لم توجد لنفسها ، وإنما وجدت لتنقذ الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، فكانت الأمة الداعية ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

فلم يفرق الرسول ﷺ في دعوته وتبليغها للناس بين كبير وصغير ، ولا بين ذكر وأنثى ، ولا بين قريب وبعيد .

ولم تشغله دعوته للأقارب عن دعوة الأباعد ، ولا دعوته لعامة الناس عن دعوة زعمائهم ورؤسائهم ، ولا دعوة الأقوياء عن دعوة الضعفاء .

ولما وقع في شيء من ذلك اجتهادًا منه ﷺ في تقديم الأولويات ، عُتب في ذلك فقال سبحانه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ .

فلا يزهد الداعية في أحد ، ولا ييأس من هداية أحد ، وإنما عليه أن يقوم بوظيفته مهما ضعفت استجابة المدعوين له ، فأجره محفوظ ، وهو غير مسؤول عن هداية الناس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

أيها الإخوة والأخوات : من هنا يظهر لنا خطأ كثير من الدعاة الذين يحصرون نشاطهم في صنف معين من الناس ، ويتركون دعوة الأصناف

---

(١) الآية (١٥) سورة الإسراء .
(٢) الآية (١١٠) سورة آل عمران .
(٣) الآية (٥٦) سورة القصص .

الأخرى ، والذين يقتصرون على دعوة نخبة معينة ، ويزهدون في غيرها ، أو يكتفون بدعوة الكافرين إلى الإسلام ، فلا يتوجهون بالدعوة إلى المسلمين أنفسهم ، فالدعوة حق للجميع ، وإن كان الأقربون أولى بالمعروف .

ولا يدري الداعية أين ستكون الفائدة ، ولا ممن ستكون الاستجابة ، وعلى يد من سيكون الخير مستقبلًا !

فقد تكون في الفقراء أكثر منها في الأغنياء ، وقد تكون في الحكام أكثر منها في المحكومين ، وقد تكون في البعيدين أكثر منها في الأقربين .. وهكذا .

وكثيرًا ما يزهد الداعية في دعوة صنف من الناس ، فإذا وجه إليهم الدعوة يومًا عرضًا ، وجد استجابة سريعة ، وإقبالًا عجيبًا لم يكن يتوقعه .

ويكفي الداعية أسوة : سيرة الرسول ﷺ يوم العقبة ، حيث لقي عند العقبة ستة نفر من الخزرج يحلقون رءوسهم ويتحللون من حجهم ، فلم يزْهد فيهم وهم على هذه الحال ، وفي هذا الموطن العابر ، فأقبل عليهم وعرض عليهم دعوته ، فكانوا النواة الأولى لبيعة العقبة ، في الوقت الذي أعرض فيه عنه كثير من الرجال وزعماء القبائل ..

كما يكفي الدعاة عبرة : فعل كثير من دعاة العصر ، الذين ركزوا في دعوتهم على نخبة من المثقفين أو العمال أو غيرهم ، في الوقت الذي انتشرت الدعوات الأخرى بين الفئات الباقية ، وفي عامة الناس ، فكان النجاح لهذه الدعوات دون غيرها في كثير من مجالات الحياة ..

وليعلم الدعاة أنهم مسؤولون عن الجميع ، ولا يعتبرون مؤدين حق المدعوين إذا ما قصَّروا مع طائفة منهم .

البصيرة الرابعة : وهي المتعلقة بالركن الثالث من أركان الدعوة ، وهو (موضوع الدعوة) أي : ما يدعو الداعية إليه .

ولعل من أهم البصائر في هذا الجانب :

١ - أن يركز الداعية على شمول الإسلام ، ووحدة أجزائه ، فلا يُفرّق في دعوته بين عقيدة أو شريعة أو أخلاق ..

لأن الإسلام كل لا يتجزأ ، ولا يظهر جماله وكماله إلا بالدعوة إليه كاملًا ، مَثَلُ وحدته في ذلك ، مَثَل وحدة الجسد البشري ، الذي لا يظهر جماله إلا باكتمال أعضائه ، وتوازن أطرافه ، وإذا فصل فيه عضو عن ذلك الجسد ، شوه من جماله من جهة ، ونظر إلى ذلك العضو نظرة سيئة من جهة أخرى ، مهما كان هذا العضو المفصول عن الجسد عظيمًا ومهمًّا ..

ألا ترون إلى جسدٍ فصل عنه رأسه الذي يُعدُّ أجمل جزء فيه !! فهل يبقى الجسد جميلًا ؟ وهل يظهر للرائي جمال هذا الرأس المقطوع ، وتوازن أجزائه الموجودة فيه ؟ ألا يُصبح كل من الجسد والعضو في هذه الحال منفرًا مخيفًا ، بعد أن كان كل منهما في محله جميلًا محببًا !!

هكذا أيها الإخوة والأخوات نفعل بإسلامنا عندما نقدمه للناس مجزَّءًا مقطوعًا ، فننفر أكثر من أن نحبب فيه ، ونحجب الناس عنه أكثر من أن ندعوهم إليه ..!

ولكن قد يقول قائل : وهل يستطيع داعية أن يدعو إلى الإسلام جميعًا ، ويُعنى بجميع جوانب الحياة التي جاء الإسلام لإصلاحها في وقت واحد ؟

فنقول في الإجابة عن هذا التساؤل : لا شك في اختلاف قدرات الدعاة وإمكاناتهم في ذلك ، ولكنه لا يجوز لداعية لا يحسن الدعوة إلى الإسلام كاملًا ، أن يوهم المدعوين بأن ما يدعو هو إليه هو الإسلام فقط ، مهملًا غيره ومخرجًا له من الدعوة ..

إن عليه أن يبين كمال الإسلام وشموله أولًا ، فإذا فعل ذلك فلا حرج عليه أن يتخصص في الدعوة إلى أي جانب من جوانبه ثانيًا ، وأن يترك الجوانب الأخرى للمتخصصين فيها والمحسنين لها ..

وإذا رأى غيره يدعو إلى جانب غير الجانب الذي يدعو إليه ، فيتخصص في غير ما يتخصص هو فيه ، فعليه أن يقدِّر ذلك الداعي ، ويعظِّم ذلك الجانب ،

ويؤكِّد أنه جانب من جوانب الإسلام المتعددة الكاملة ..

ولكم يخطئ بعض الدعاة ، حيث يسلطون الضوء على جانب دون غيره ، أو يضخمون جزءًا منه على حساب جزء آخر .. مع أن الجميع دين الله ، وجميع الجوانب شرعه ، ولا يجوز لأحد أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض !!

ولكم يخطئ أيضًا من يتجرأ على الدعوة إلى جميع الجوانب دون أن يتمكن فيها ، فيدعو لأمر لا يفهمه ، أو يقوم بشأن لا يحسنه ، بدعوى أنه جزء من هذا الإسلام من جهة ، وأنه لا كهنوتية في الإسلام من جهة أخرى ..

وكثيرًا ما يريد الناس بمثل هذه المقولة الصحيحة (مرادًا باطلًا) فيقصدون بالكهنوتية (التخصص والعلم بجانب من الجوانب) ، فيخوضون في كل شيء بدعوى أن الدين للجميع ، وليس لقوم دون قوم أو لفئة دون فئة ، فتراهم يفتون من غير علم ، ويقضون من غير تأهل للقضاء ، ويَقْفون ما ليس لهم به علم ، فيسيئون من حيث يريدون الإحسان ، وقد يظنون أنهم يحسنون صنعًا ، ناسين تحذير الله ﷻ القائل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [1] .فإن من البصيرة التأكيد على عموم الإسلام وشموله ووحدة أجزائه ونظمه .. كما أن من البصيرة التأكيد على ضرورة اقتصار الداعية على الدعوة إلى ما يحسن الدعوة إليه ، تاركًا ما لا يحسن إلى من يحسن .. (فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها) ورحم الله امرءًا عرف حدَّه فوقف عنده ..

٢ - وإن من البصيرة في جانب موضوع الدعوة : أن يركز الداعية على أسلوب عرض محاسن الإسلام ، قبل أن يتصدى لرد الشبهات المثارة حوله :

فإنه إذا عرضت محاسن الإسلام ومزاياه عرضًا حسنًا ، تلاشت أمام هذا العرض الشبهات المثارة تلقائيًا ، ولم يعبأ بها أحد ؛ لأن الشبهات لا تفعل فعلها إلا حيث تخفى المحاسن على الناس ، أو يلبس الحق بالباطل ..

ويخطئ من يبدأ دعوته إلى شيء بمناقشة الشبهات المثارة حوله أولًا ، حيث

---

(١) الآية (٣٦) سورة الإسراء .

يجعل ما يدعو إليه في موقف ضعيف ، وكأنه متهم في قفص يريد أن يدافع عنه ، فكذلك دين الإسلام الذي هو وحده الذي ارتضاه الله دينًا لعباده بعد أن ختمت به الرسالات ، فإذا ركزنا على مناقشة الشبهات المثارة حوله قبل أن تتجلى للناس محاسنه ، وتأسرهم مزاياه ، نظروا إليه وكأنه متهم ضعيف يحتاج إلى دفاع عنه ..

ولكن عندما تُعرض المحاسن والمزايا عرضًا حسنًا ، ويتفهمها الناس تفهمًا صحيحًا ، تتلاشى عندهم تلك الشبهات تلقائيًا ، ولم يعودوا بحاجة كبرى لمناقشتها ، أو الدفاع عن إسلامهم ، القوي بذاته ، لأنه دين الله القوي العزيز !!

وإذا ما احتاج الداعية إلى دحض شبهة ، أو دفع تساؤل ، كان ذلك منه تبعًا لدعوته إليه ، وإجهازًا على تلك الشبهات والتساؤلات ..

كما أن كثيرًا من الشبهات المثارة حول الإسلام ، لم تكن لترفع رأسها ، ويعلو صوتها يوم كان الإسلام قويًا في نفوس الناس ، مطبقًا في حياتهم ، يتقلب الناس بين جنباته ويتمتعون بخيراته وحسناته ..

ويوم ضعف الإيمان في قلوبهم ، وبهتت صورته في نفوسهم ، وتقلصت آثاره في سلوكهم ، وانسحبت كثير من نظمه من حياتهم .. يومها رفعت بعض الشبهات رأسها ، وعلا صوتها ، ونفذت إلى قلوب وعقول أبناء المسلمين !!

لذا كان من البصيرة الدعوية أيها الإخوة والأخوات : أن يتعرف الداعية على منشأ الشبهات ودوافعها قبل أن يُشغل بمناقشتها ودحضها .. وأن يعرف الأجواء التي تنتشر فيها .. والأرض التي تتولد منها قبل أن يتابعها شبهة شبهة ، ويضيع وقته في ملاحقة أمور لا تجفُّ منابعها ، ولا ينتهي حصرها ..

فلقد مرَّ المسلمون في تاريخهم بمراحل عديدة ، ومواقف متنوعة من محاسن دينهم ، والشبهات المثارة حولها ..

حيث كفاهم القرآن الكريم في الأيام الأولى دحض الشبهات بأسلوب رباني حكيم ، وحصنهم تطبيق الإسلام تطبيقًا صحيحًا شاملًا في حياتهم تجاه الشبهات ، فما كانت الشبهات في العصر الأول لتجد أرضًا خِصبة تعيش

فيها ، ولا عقلًا مفتوحًا لها تنفذ من خلاله .

بل كانت تتلاشى الشبهات أمام هدي الإسلام النظري والعملي ، كما تتلاشى الظلمات أمام الأنوار الكاشفة ، أو في مواجهة الشمس الساطعة .

ويوم خفت بعض هذه الأنوار ، وكُسفَ بعض نور تلك الشمس ، برزت بعض تلك السحب الداكنة ، والخيوط المظلمة في سماء الناس ..

وتحرك الدعاة والمصلحون لإعادة الأمور إلى مجاريها ، بتقوية تلك الأنوار الخافتة ، وإزالة الحجب الكاتمة ، فنجحوا كثيرًا في مهمتهم ، وقضوا على كثير من الشبهات المثارة حول دينهم ..

ثم مرَّ على الناس حين من الدهر ، ضعفت فيه قبضتهم على دينهم ، ففقدوا بذلك كثيرًا من خيراته ، وحُرموا من بركاته .

فتداعى عليهم الأعداء من جديد ، فأشهروا عليهم سيوفهم ، ووجهوا إلى الإسلام سهامهم ، وما كان للضعيف أن يقف أمام الأعداء ، أو يفنِّد هجماتهم، ويَسلَمَ من مكرهم ..!

ثم ظهرت فيهم صحوة ، بادرت إلى مواجهة أعدائها ، كما يبادر الضعيف المغلوب إلى الدفاع عن نفسه بالقدر الذي يتمكن به من عدوه ، فناقشوا الشبهات وأجابوا عن كثير من التساؤلات .

إلا أن فترة الدفاع هذه قد طالت ، وما حق لها أن تطول ؛ لأن على المدافع الحكيم البارع أن يتحول سريعًا إلى موقف الهجوم ، ويتجاوز مرحلة الدفاع التي تعد مرحلة ضعف - مهما ظهرت فائدتها ، ومهما دفعت من الشر في وقتها - وإلا أجهز العدو عليه ، وأحبط له جميع تحصيناته .

ومن هنا : كانت أهمية هذه البصيرة التي تنبَّه إليها أفاضل الدعاة ، فنادوا بأعلى صوتهم بضرورة ذلك التحول ، الذي بدأت تظهر بوادره على الساحة الإسلامية اليوم ، من خلال الدعوات السليمة ، والخطوات الحكيمة ، والأساليب النافعة التي تجلي للناس محاسن دينهم ، وتبرز لهم مزاياه ، فيواجهون بها باطل عدوهم ، فيقضون عليه ، مصداقًا لوعد اللّه تعالى وسنته :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) ، فقد جعل الله ﷻ زهوق الباطل منوطًا بمجيء الحق وتحركه ، وليس بمجرد وجوده .

نسأل الله ﷻ أن يُبصرنا بمحاسن ديننا ، ويوفقنا إلى عرضها عرضًا حسنًا ، وأن ينجينا من كيد أعدائنا ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *

(١) الآية (٨١) سورة الإسراء .

الفصل
الرابع

بصائر دعوية في جانب مناهج الدعوة وأساليبها

وقد جعلتها في ست بصائر هي :

البصيرة الأولى : ضرورة التفريق بين منهج الدعوة الرباني ، ومنهج الدعوة البشري ، ومعرفة العلاقة بينهما .

فقد وضع الشارع للدعوة الإسلامية مناهج قويمة ، وقواعد سليمة عن طريق الكتاب والسنة ، يستنير بها الدعاة ، ويتمسك بها الهداة لتهديهم لما هو أقوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١) . وقال : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢) .

وهذه المناهج هي التي تسمى بالمناهج الربانية ، نسبة للرب جلَّ جلاله الذي وضعها لعباده ، وتعبدهم بها ، فلا يجوز لهم بحال من الأحوال تجاوزها أو الخروج عليها ، لأنها الأساس في كل دعوة ، والأصل في كل خير .

كما قد يضع الدعاة العاملون ، والعلماء الربانيون باجتهادهم مناهج تفصيلية ، وخططًا مرحلية لدعوتهم ، تطبيقًا للمناهج الربانية ، واعتمادًا عليها ، وذلك بما يتناسب مع زمانهم ، ويتلاءم مع ظروف المدعوين من حولهم .

وتسمى هذه المناهج بالمناهج البشرية ؛ لأنها مهما كانت سليمة ومفيدة ؛ فقد وضعها البشر من عند أنفسهم ، وبمقتضى علمهم وفهمهم لشريعتهم ، فهي مناهج تحتمل الصواب والخطأ ، كأي مسألة اجتهادية ، لا يعدم المجتهد فيها أجرًا أو أجرين بحسب صوابه فيها أو خطئه ..

وللناس جميعًا أن يأخذوا منها ، أو يتركوا منها ما شاءوا ، اللهم إلا مناهج الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، والتي أمرنا بالتزامها والعضِّ عليها بالنواجذ - كما مر معنا في بصائر دعوية سابقة - .

---

(١) الآية (٩) من سورة الإسراء .
(٢) الآية (٤٨) من سورة المائدة .

أما المناهج الربانية : فهي وحدها الملزمة للمؤمنين جميعًا بالأخذ بها ، والتمسك بها ، فقد جاء في الحديث الشريف ، الذي رواه أبو داود والترمذي وقال عنه : حسن صحيح : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ .. » .

ومن الغفلة عن مثل هذه البصيرة : أنزل بعض الناس مناهج علمائهم ودعاتهم منزلة المناهج الربانية ، فتمسكوا بها تمسكهم بالمناهج الربانية ، وتحرجوا من الخروج عليها ، والتغيير والتطوير فيها تحرجهم من الخروج على النصوص الشرعية ، والمناهج الربانية ، وعاملوها معاملة الثوابت الشرعية والمعالم الربانية ، ناسين أن علماءهم هم الذين وضعوها لأنفسهم وللدعاة في زمنهم ، وغافلين عن أن علماءهم هؤلاء لو كانوا في عصرهم ، لغيروا في هذه المناهج وبدلوا فيها بما يتناسب مع عصرهم هذا ، ويتلاءم مع أحوال المدعوين فيه ؛ لأن لكل قوم وزمن المنهج الذي يناسبهم ، ويلبي احتياجاتهم ..

ومن هنا : كان تعدد المناهج والشرائع الربانية نفسها ، فجعل اللّه لكل أمة من الناس شريعة ومنهاجًا يتناسب مع أحوالهم ، ويلبي متطلباتهم ، ولم يجعل المناهج والشرائع منهجًا واحدًا ، ولا شريعةً واحدة ..

ومن الغفلة عن هذه البصيرة أيضًا : أنكر بعض الدعاة على غيرهم وضع مناهج لأنفسهم وإخوانهم ، يطبقون بها منهج اللّه ، اجتهادًا منهم في ذلك ، واقتباسًا من النصوص الشرعية والسيرة النبوية .. ونظروا إليهم نظرتهم إلى الخارجين بذلك عن المنهج الرباني والمخالفين لشرع اللّه !

ولو تبصَّر أمثال هؤلاء في أمر دعوتهم ، لوقفوا من تلك المناهج التي يعارضونها أو يرون خلافها ، موقفهم من أي مسألة اجتهادية ، تتقبل الحوار والمناقشة ، والتصويب والتخطيء ، دون إنكار أو تشنيع - كما هو واجب المسلم تجاه المسائل الاجتهادية .

البصيرة الثانية : ضرورة مراعاة الفروق بين المدعوين أثناء وضع المناهج البشرية ؛ لأن المنهج والأسلوب في دعوة المسلم مثلًا يختلف كثيرًا عن المنهج

والأسلوب في دعوة الكافر . والمنهج الذي يناسب دعوة المؤمن القوي السابق بالخيرات ، يختلف عن منهج دعوة المؤمن المقتصد ، والظالم لنفسه .. وهكذا .

فلكل صنف من الناس ما يناسبه لهدايته ، ويتدرج معه في سبيل الترقي والكمال ..مثلها في ذلك مثل المناهج التعليمية التي تضعها وزارات التربية والتعليم والمعارف والتعليم العالي ، للمراحل الدراسية كلها ، فتراها تختلف من حيث المستوى والأسلوب في كل مرحلة دراسية عن غيرها ، فإن للدارسين في الجامعات مناهج وأساليب تختلف كثيرًا عن مناهج الدارسين في المراحل الثانوية والإعدادية والابتدائية .

وإن لهؤلاء جميعًا مناهج تختلف عن مناهج التعليم الخاص بمحو الأمية .. وهكذا ، ولكن هذه المناهج جميعها تنطلق من الثوابت الأساسية ، وتوضع في ضوء السياسات التعليمية التي تعتمدها تلك الدول ..

البصيرة الثالثة : ضرورة أن تتنوع الأساليب والمناهج الدعوية في ارتكازها على الأسس الفطرية ، والركائز البشرية الشاملة لركائز القلب والعقل والحس ؛ ذلك لأن منافذ المعرفة البشرية لا تعدو هذه النوافذ من جهة ، ولأن هذه المنافذ متشابكة في النفوس البشرية ، لا يمكن فصل بعضها عن بعض من جهة أخرى .

فلكل إنسان عواطف ومشاعر محلها القلب .

ولكل إنسان تدبُّر وتفكُّر محله العقل .

ولكل إنسان حواسُّه بها من بصر وسمع ، وشمٍّ ولمس ، يتعرف بها على الأشياء ..

فالكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والترغيب والترهيب .. كل ذلك وما شابهه أساليب تنفذ إلى القلب سريعًا ، لأن القلب مركز العواطف والمشاعر الإنسانية .

وكل هذه الأساليب : بأشكالها وأنواعها العديدة تشكِّل ما يمكن أن يُسمى بالمنهج العاطفي في الدعوة إلى اللّه .

والمحاكمات العقلية ، والجدل والحوار ، وضرب الأمثال وما إلى ذلك .. كلها أساليب تنفذ إلى العقل سريعًا .. لأن العقل مركز التفكر والتدبر .

وكل هذه الأساليب بأشكالها وأنواعها العديدة ، تشكل ما يمكن أن يسمى بالمنهج العقلي في الدعوة إلى الله .

والحواس البشرية جميعها هي التي تنقل إلى القلب أو العقل ، أو إليهما معًا تلك المعاني والمعارف ، فالأساليب التي ترتكز على مخاطبة الحواس ، فتدعو إلى المشاهدة والنظر والتفكر في مخلوقات الله ، كما تدعو إلى الاستماع واللمس باليد وما إلى ذلك ، كلها يمكن أن تشكل معًا ما يسمى بالمنهج الحسي أو التجريبي ..

ومن هنا : كانت الحواس من أكبر نعم الله على عباده التي امتن بها ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (١) .

كما كانت من أهم ما يسأل عنها الإنسان يوم القيامة .. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٢) .

من هنا : كان على الدعاة أن يتعرفوا على هذه المنافذ الثلاثة ، ويبحثوا عن الأساليب المساعدة على النفوذ منها لينفذوا بها إلى قلوب الناس وعقولهم ، فيقوموا بوظيفتهم حق القيام . وإن لديهم في القرآن الكريم ، وفي سيرة الرسول العظيم ﷺ ، وسيرة خلفائه الراشدين ، وصحابته الأكرمين ، وفي سيرة العلماء العاملين ، والدعاة الربانيين منارات نور ، ومعالم هدى ..

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده المهتدين بهديه ، القائمين حق القيام بدعوته ، المتبعين لسنة نبيه ﷺ ، والأنبياء والمرسلين من قبله .. ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٣) .

البصيرة الرابعة : في أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله ، وفي بيان بعض مظاهره :

---

(١) الآيات (٨ - ١٠) سورة البلد .
(٢) الآية (٣٦) سورة الإسراء .
(٣) الآية (٩٠) سورة الأنعام .

والحكمة في اصطلاح العلماء كما عرفها بعضهم : (إصابة الحق بالعلم والعقل) ، وقال آخرون : (الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم) ، وقال آخرون : (الحكمة وضع الأشياء مواضعها) ، أو (الإصابة في القول والعمل معًا) .

فالأسلوب الدعوي الحكيم إذن هو : (الأسلوب الذي يضع الشيء في مواضعه) أو (الذي يوصل إلى الصواب في القول والعمل) .

وهو أول أسلوب أمر الله به الدعاة فقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) ، وهو الذي قال فيه : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢) .

وهو الذي بعث الرسل من أجل بيانه وتعليمه ، فقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

ومن مظاهر الحكمة الدعوية في جانب المناهج والأساليب :

أ - ترتيب الأولويات ، وتقديم الأهم على المهم في الدعوة إلى الله :

فلا يعد المنهج الدعوي حكيمًا ، إذا لم يرتب الأولويات في الخطة الدعوية ، ولم يُقدِّم الأمر الأهم على الأمر المهم ..كأن يقدم أمور العقائد على غيرها من أمور العبادات والأخلاق ، وأن يقدم الدعوة إلى الفروض والواجبات على الدعوة إلى المندوبات والنوافل .. وأن يدعو إلى اجتناب المحرمات قبل المكروهات ، وأن يقدم المصالح العامة على الخاصة عند التعارض ، وأن يهتم بالضروريات قبل الحاجيات ، وبالحاجيات قبل التحسينات .. وهكذا .

---

(١) الآية (١٢٥) سورة النحل .

(٢) الآية (٢٦٩) سورة البقرة .

(٣) الآية (٢) سورة الجمعة .

ب – ومن مظاهر الحكمة في المناهج أيضًا : التدرُّج في تطبيق تلك الأولويات ، ولا سيما عند معالجة الأشخاص والأوضاع العامة ؛ تمامًا كما فعل القرآن الكريم ، والرسول العظيم ﷺ ، ومشى على ذلك الخلفاء الراشدون ، والعلماء العاملون ..

فقد نزل القرآن الكريم متدرجًا في ثلاث وعشرين سنة ، ولما اعترض على ذلك الكافرون ، بين اللّه الحكمة من نزوله متدرجًا فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (١) .

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها : (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ ؛ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ ؛ لَقَالُوا : لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا ، وَلَو نَزَلَ لا تَزْنُوا ، لَقَالُوا : لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا) (٢) .

وروى الشاطبي رحمه الله في الموافقات : (أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمهما اللّه قال يومًا لأبيه عمر : مالك لا تُنفِذُ الأمور ؟ فواللّه ما أبالي أن القدور غلت بي وبك في الحق !!

قال عمر : لا تعجل يا بني ، فإن اللّه ذم الخمر في القرآن مرتين ، وحرمها في الثالثة ، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة ، فيدفعوه جملة ، ويكون من ذا فتنة) .

ج – ومن مظاهر الحكمة في المنهج أيضًا : أن يكون المنهج مناسبًا للأحوال والأعمار والمستويات : فلا يُعدُّ المنهج حكيمًا إذا ساوى في الدعوة بين حالة القوة ، أو بين حالة السلم وحالة الحرب ، أو حالة عموم البلوى بالشيء .. وغيرها ..

كما لايعد المنهج حكيمًا إذا لم يفرق حين وضعه بين الكبير والصغير ، ولا بين المرأة والرجل ، ولا بين العالم والجاهل ، والعدو والصديق ، والحاكم

(١) الآية (٣٢) سورة الفرقان .

(٢) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن رقم (٤٦٠٩) .

والمحكوم .. وما إلى ذلك من أحوال ومستويات تقتضي التفريق !!

وقد جاء في الحديث الشريف ، قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « يا عائشة لَوْلا أَنَّ قومك حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين ، بَاب يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَاب يَخْرُجُونَ مِنْهُ » (١) .

د – ومن مظاهر الحكمة أيضًا في جانب المناهج : أن يُختار المنهج المناسب لتطبيقه في المواقف المناسبة ، والحالة المناسبة : فقد يصلح منهج ما لحالة من الحالات ، أو معالجة موقف من المواقف ، ولا يصلح لغيره .

وقد يصلح المنهج العاطفي في موقف لا يصلح له المنهج العقلي ، كما قد يصلح المنهج العقلي لموقف لا يصلح له المنهج العاطفي .. وهكذا .

ومن هنا : استخدم الرسول ﷺ المنهجين معًا في موقفه مع الشاب الذي جاء يستأذن بالزنا ، فقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : إِنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه : ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْه فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ ﷺ : « ادْنُهْ » ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ : فَجَلَسَ ، قَالَ : « أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ ؟ » قَالَ : لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، قَالَ : « وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهاتِهِمْ » ، قَالَ : « أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ ؟ » قَالَ : لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : « وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ » ، قَالَ : « أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ ؟ » ، قَالَ : لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : « وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ » قَالَ : « أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ » قَالَ : لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : « وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِم » ، قَالَ : « أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِك ؟ » قَالَ : لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : « وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ » قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ .

فقوله ﷺ للشاب : « ادنه » وتقريبه منه ، ووضع يده عليه ، ودعائه له .. كل ذلك من أساليب المنهج العاطفي الذي يحرك الشعور والوجدان ، ويأسر القلوب ..

---

(١) متفق عليه رواه البخاري ، كتاب العلم ، رقم (١٢٣) ، ومسلم ، كتاب الحج ، رقم (٢٣٧١) .

ومناقشته ﷺ للشاب باستخدام القياس ، ومجادلته له بالحسنى .. كل ذلك من أساليب المنهج العقلي .

فاستخدامه ﷺ لهذين المنهجين معًا في وقت واحد ، مظهر من مظاهر حكمته ﷺ البالغة في تخير الأساليب والمناهج .

ذلك لأن مجيء الشاب المسلم إلى رسول الله ﷺ مستئذنًا بالزنا ، يدل على أنه شاب ضعيف ، اختل توازنه ، واضطربت شخصيته ، ودفعته غريزته إلى الرغبة في الزنا .. فكان إيمانه حاجزًا له بعض الشيء ، ودافعًا له إلى الاستئذان .. واستئذانه هذا دليل ناطق بالحالة المرضية فيه من جهة ، ودليل على جانب الخير فيه من جهة أخرى ..

وإلا ، لذهب الشاب وزنا كما يزني غيره دون رادع .. فاقتضت الحكمة أن تشخص الحالة تشخيصًا دقيقًا يكشف حالته النفسية التي تقتضي استيعابه كل الاستيعاب ، واستخدام كلا الأسلوبين معه ، لإنقاذه مما وقع فيه ، وإعادة التوازن إليه ..

أرأيتم أيها الإخوة والأخوات : كم يكون الدعاة مخطئين وبعيدين عن البصيرة الدعوية لو قابلوا مثل هذا الشاب بالنّهر والزجر ، أو اكتفوا في معالجته ببيان حكم الزنا والتغليظ فيه ! أيكون ذلك رادعًا له ؟

ولكنها الحكمة التي مُلئ بها قلب رسول الله ﷺ فوضع المنهج والأسلوب المناسب موضعه ..

ومن مظاهر الحكمة في المنهج والأسلوب أيضًا :

هـ - اختيار الشكل المناسب من أساليب المنهج المختار : ذلك لأن أشكال الأساليب الدعوية للمنهج الواحد قد تكون متعددة متنوعة ، والحكمة الدعوية تقتضي اختيار الشكل المناسب لكل موقف ؛ فإن ما يقال في الأفراح مثلًا يختلف عما يقال في الأتراح ، وما يقال في أيام الشدة غير ما يقال في أيام الرخاء .

وللترغيب مواطن تختلف عن مواطن الترهيب ، فمن غلب عليه الخوف

مثلًا ، يستخدم معه أسلوب الترغيب والرجاء ومن غلب عليه الرجاء والأمل ، يستخدم معه أسلوب الترهيب والتخويف .. هكذا ..

ومن هنا : اختلف أسلوب الرسول ﷺ مع الأعرابي الذي جاء إليه مُسْتَرْخِصًا ، سائلًا عن الواجبات والفرائض الإسلامية ، ثم قال بعد أن عرفها : (والله لا أزيد على هذا ولا أنقص) [1] .

اختلف هذا مع أسلوبه ﷺ مع فقراء المسلمين من الصحابة ﷺ الذين جاءوا مستزيدين من الخير قائلين : (ذهب أهل الدثور بالأجور) [2] .

كما اختلف أسلوبه ﷺ أيام الجهر بالدعوة ، عن أسلوبه أيام الاختفاء في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وموقفه في الغزوات عن موقفه يوم صلح الحديبية ، وهكذا ..

د – ومن مظاهر الحكمة أيضًا : اعتماد الداعية لمراتب الاحتساب ، ومراتب الاحتساب هي : التعريف أولًا ، ثم الوعظ ، ثم التعنيف ، ثم استعمال اليد ، ثم التهديد ، ثم الضرب ، وهكذا .. كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [3] ، وكما رتبها الحديث الشريف الذي فيه : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [4] .

فمن حكمة الداعي وبصيرته الدعوية : أن يلاحظ ترتيب المراتب هذه ، فلا يستعجل مرتبة قبل التي قبلها ، وإلا كان خارجًا عن أسلوب الحكمة الذي أمر به .

ز – ومن مظاهر الحكمة أيضًا : البحث عن الدوافع والأسباب التي دفعت المدعو إلى الوقوع في المعصية ، وذلك لملاحظتها في اختيار الأسلوب المناسب له .

فإن أسلوب معالجة الجاهل ، يختلف عن أسلوب معالجة العالم ، وأسلوب

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، رقم (٤٤) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، رقم (١٦٧٤) .

(٣) الآية (٣٤) سورة النساء .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم (٧٠) .

معالجة الصديق ، يختلف عن أسلوب معالجة العدو .. وأسلوب معالجة الضعيف المقصر المعترف بضعفه ، يختلف عن أسلوب معالجة المعاند المكابر .. وهكذا .

فعلى الداعية عندما يواجهه موقف من المواقف أن يراعي ما يلي :

١ - أن الأصل في تشخيص الدافع حسن الظن بالمسلم ، والحذر من العدو .

٢ - على الداعية إخفاء تشخيصه في نفسه ، والتخطيط للمعالجة في ضوء هذا التشخيص الذي توصل إليه ، وعدم مواجهة صاحبه المدعو به ؛ ذلك لأن المواجهة بمثل هذا لا تخلو من سلبية ، سواء أكان التشخيص الذي وصل إليه صوابًا أو خطأً ..

٣ - اختيار الأسلوب المناسب للتشخيص الذي توصل إليه .. فإن لكل داء دواء ..

و - ومن مظاهر الحكمة أيضًا : مراعاة اختلاف الظروف والأحوال الدعوية ، الفردية منها والجماعية : فإن الأساليب الدعوية تختلف من ظرف إلى ظرف .. ومن حال إلى حال ، فأسلوب العمل الدعوي مثلًا في دولة مسلمة أو (مسالمة) يختلف عن أسلوب العمل الدعوي في دولة غير مسلمة أو محاربة ..

وإذا كان من الحكمة العمل على إضعاف الدولة الكافرة أو المحاربة بأي وسيلة شرعية متاحة .

فإن من الحكمة في العمل في الدولة المسلمة والمسالمة أن يعمل فيها من خلال المؤسسات الرسمية القائمة فيها ، والمؤسسات الشعبية التي تقرّها وتعترف بها .. ولا يحسن العمل فيها من خلال المؤسسات الأخرى والتنظيمات السرية .

ذلك لأن من واجب الدعاة في الدولة المسلمة القائمة : المحافظة عليها ، والسعي إلى إصلاحها ، وتقويمها مهما كانت ضعيفة أو ظالمة أو فاسقة ..

كما أن من واجبهم العمل على إيجادها وتحقيقها في حال فقدها وعدم وجودها ..

وليعلم الدعاة أن العمل السري في الدولة المسلمة مهما كان في نظر أصحابه صالحًا مفيدًا ، فسلبياته تزيد على إيجابياته ، وقد يجر الدعاة إلى مواقف محرجة هم في غنى عنها ..

كما قد يوقع الأفراد العاملين في ازدواجية السمع والطاعة بين القيادات التنظيمية والحكام القائمين على تلك الدولة ..

وقد يترتب على العمل السري فيها : أن تُفهم دعوتهم على غير وجهها الصحيح ، فينظر إليها على أنها دعوة مُعارضة ومقاومة للدولة المسلمة ، وليست لها ، ولا في سبيل الإصلاح فيها ، مما يؤدي غالبًا إلى الاهتمام والحرص على تحجيمها ومحاربتها بدلًا من دعمها وتقويتها ..

وَلَكِنْ أخطأ الحكمة في هذا كثير من الدعاة ، فصوَّروا بسلوكهم الدعوة الإسلامية بالصور المعادية للدولة القائمة ، مهما كان شأنها ، دون تفريق بين دولة وأخرى ، فكثروا بذلك من أعدائهم ، وقللوا من أصدقائهم ، واختاروا العيش بدعوتهم في الظلام مما نفر الناس منها ، وقلل من آثارها في حياة الناس .

ولعل من تمام البصيرة والحكمة في هذا المقام : أن يترك الحكم على الدولة بكفر أو إسلام ، وبظلم أو فسق ، وبحرب أو مسالمة . كما يترك تحديد الموقف منها ، وأسلوب العمل معها إلى أهل العلم والاختصاص والخبرة الذين يمثلون ما يطلق عليهم اسم (أهل الحل والعقد) حال اجتماعهم ؛ لأنهم وحدهم الذين يقدرون الأمر قدره ، ويبينون للوضع حكمه ، منطلقين في ذلك من القواعد الشرعية المنضبطة ، والموازنات الدعوية الدقيقة ، فيرتفع بحكمهم الخلاف ، وتؤمن الاضطرابات والفوضى في الأمور العامة ، وتؤتي الدعوة ثمارها بإذن الله .

ولو تُرك مثل هذا للأفراد أو الجماعات متفرقين ، لحكَمَ كلٌّ بحسب مرئياته وفهمه ، واختلفت اجتهاداتهم ، وتباينت مواقفهم ، وتعارضت أساليبهم ، فيهدم بعضهم ما يبنيه الآخرون ، وتؤول الأمور إلى الفوضى والتفرق والاختلاف ، وتكون الدعوة الإسلامية هي الخاسرة في نهاية المطاف ..!

إلى غير ذلك من مظاهر للحكمة الدعوية ، التي كثيرًا ما افتقدها المسلمون في دعوتهم ، ولا سيما في العصور المتأخرة فأصبح كثير منهم يخبط في دعوته خبط عشواء ، فيكرر أخطاء الآخرين هنا وهناك ، ويعارض كل دعوة إصلاحية ، أو حركة تصحيحية في مسار الدعوة الإسلامية .

البصيرة الخامسة : التعرف على أسلوب الموعظة الحسنة ، والوقوف على أهميته وبعض خصائصه : فإن أسلوب (الموعظة الحسنة) هو الأسلوب الثاني الذي أمرنا الشارع باعتماده في دعوتنا بعد أسلوب الحكمة ، فقال ﷻ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [1] ، ووصف الموعظة هنا بالحسنة ، دليل على أن الموعظة كما تكون حسنة ، فقد تكون سيئة ، وذلك بحسب ما يعظ الإنسان به ، ويأمر به من جهة ، وبحسب أسلوبه في وعظه من جهة أخرى .

والموعظة الحسنة في الاصطلاح الدعوي : ترادف النصيحة في اصطلاح الشارع ، وإن لها أشكالًا عديدة منها :

أ - القول الصريح اللطيف اللين ، قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .

ب - الإشارة اللطيفة المفهومة ، وقديمًا قالوا : إن اللبيب من الإشارة يفهم .

ج - التعريضُ ، والكناية ، والتورية ..

د - القصة المؤثرة ، والخطبة البليغة ، والفكاهة المضحكة ..

هـ - التذكير بالنعم المستوجبة للشكر .

و - المدح والذم ، والترغيب والترهيب .

ز - البشارة والوعد ..

ح - التحمل والصبر .. وما إلى ذلك من أساليب مباشرة وغير مباشرة تؤثر في نفوس المدعوين ، وتدفعهم إلى الطاعة والاستجابة دفعًا ..

وإن من مظاهر أهمية أسلوب الموعظة الحسنة :

١ - الأمر الصريح من الله ﷻ لعباده باستعماله ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ .

---

(١) الآية (١٢٥) سورة النحل .

٢ - جعل رسول الله ﷺ النصيحة أساس الدين كله ، فقال في الحديث الذي رواه مسلم وغيره : « الدين النصيحة » والنصيحة كما ذكرنا : مرادفة للموعظة الحسنة .

٣ - مبايعة الرسول ﷺ الصحابة عليها ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه : (بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم) .

٤ - استخدام جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها ، فقد أخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام ، أنه قال : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ، وعن هود عليه السلام أنه قال : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

٥ - ومن ذلك عظم خصائص الأسلوب ، والتي منها :

أ - لطف عباراته وألفاظه ، فلابد للموعظة الحسنة من عبارة لطيفة ، ولفظ مناسب .

ب - تنوع أشكالها وكثرتها ، فيتمكن الداعية من اختيار الشكل المناسب للموقف المناسب دون صعوبة أو مشقة .

د - بليغ أثرها في النفوس البشرية وسرعة استجابتها له ، وغرس المحبة والمودة في قلوب المدعوين .

هـ - محاصرة المنكرات والقضاء عليها ؛ لأن الناس يخجلون ممن يعظهم موعظة حسنة ، فيتركون المنكرات أو لا يجاهرون بها على الأقل بسببها ..

وإن للدعاة عبرة في سيرته ﷺ باستخدام الموعظة الحسنة ، وأثرها العملي في حياة الناس ..

من ذلك : استخدامه ﷺ لهذا الأسلوب مع الأعرابي الذي بال في المسجد ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَهْ مَهْ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ » ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا

تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ ؛ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ وَالصَّلاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَأَمَرَ رَجُلا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ [(١)] .

ومن ذلك : موقفه ﷺ يوم حنين ، حين قسم الغنائم ، فوجد الأنصار ﷺ في أنفسهم شيئًا ، فقام فيهم خطيبًا يذكرهم بنعمة اللَّه عليهم ، ووعظهم موعظة حسنة كان لها عظيم الأثر في نفوسهم فقد روى البخاري في صحيحه عن زيد بن عاصم قال : لَـمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رسوله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبهمْ وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا - أي غضبوا - إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاس . فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ . قَالَ : « مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ ؟ » قَالَ : كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ . قَالَ : « لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا .. أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا ، الأَنْصَارُ شِعَارٌ ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ » [(٢)] .

أيها الإخوة والأخوات : أليس من الموعظة الحسنة : أن يذكرهم رسول اللَّه ﷺ بنعم اللَّه عليهم ؟ أليس من بليغ الموعظة الحسنة : أن يقول لهم لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ليشير بفضلهم عليه ، واعترافه لهم ﷺ بما قدموه له ..؟

أليس من ذلك أيضًا : أن يقول لهم : لولا الهجرة لكنت امرءًا منكم ، وأنه لو سلك الناس مسالك وشعبًا ، لسلك هو مسلك الأنصار وشعبهم ؟

أليس من الموعظة الحسنة : أن يجعلهم منه بمنزلة الشِّعار ، ويجعل غيرهم

(١) رواه البخاري ، كتاب الوضوء ، رقم (٢١٢) ، ورواه مسلم ، كتاب الطهارة ، رقم (٤٢٩) .
(٢) رواه البخاري رقم (٤٣٣٠) الفتح (٨ / ٤٧) .

بمنزلة الدثار ؟

أليس في قوله لهم : « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » بشارة لهم ووعد لهم بالحسنى ؟

هذا نموذج رائع من نماذج الموعظة الحسنة التي نجدها كثيرًا في سيرته وسنته ﷺ فالداعية الحكيم والبصير هو الذي اتخذ من أسلوب الرسول ﷺ قدوة وأسوة ..

أسأل الله ﷻ أن يوفقنا لاتباعه ﷺ والتأسي به في جميع شؤوننا وأعمالنا ، وأن يحفظنا من الزلل والخطأ ، إنه سميع مجيب ..

البصيرة السادسة : التعرف على أسلوب الحوار والمجادلة بالحسنى ، والوقوف على مواطن استعماله ومظاهره : فالمجادلة بالحسنى ، والحوار الدعوي منهج قرآني وعلاج رباني ، وأسلوب نبوي ، ما أحوج الدعاة إليه فيما بينهم ، ولا سيما مع انتشار مرض الإعجاب بالرأي الذي فشا بين الناس ، والذي عده الرسول ﷺ إحدى المهلكات الثلاث !!

وما أحوجنا إليه في المدعوين ، ولا سيما الذين يغلب عليهم الطابع الجدلي ، ولا يكاد يؤثر فيهم المنهج العاطفي !!

ومن هنا جاء الأمر باستخدامه كما جاء الأمر في استخدام الحكمة والموعظة الحسنة ، فقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

وحسبنا دليلًا على أهميته : أن الله ﷻ ارتضاه لنفسه ، فحاور عباده ، واعتمده في خطاباته مع إنْسه وجِنّه وملائكته ..

كما اعتمده الرسول ﷺ في دعوته ، فحاور جميع من حوله من المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب .. حتى أصبح الحوار شعارًا لأحاديثه مع أهله وأصحابه ، وطابعًا عامًّا لأسلوبه في دعوته ، لا يفرق فيه بين كبير وصغير ، ولا بين قريب وبعيد ، ولا بين ذكر وأنثى ..

---

(١) الآية (١٢٥) النحل .

فكان الحوار بذلك أسلوبًا ناجحًا ، وسنة متبعة في تعليم الناس وتزكيتهم ، وإنقاذهم من الضلالة إلى الهدى .

فبالحوار والمجادلة بالحسنى : يصبح الغضوب حليمًا ، والعجول متأنيًا ، والظَّان متيقنًا ، والمبغوض محبوبًا ، والبعيد قريبًا ، والمحجم متعاونًا ، والقاعد متحركًا ، واليائس طموحًا ، والمتثاقل المحبط نشيطًا متفائلًا .

كما يُصبح الغامض واضحًا ، والمبتلى معافى ، والمخالف موافقًا ، والمنكر عاذرًا .

هذا إذا لوحظ في الجدل والحوار آدابه وضوابطه التي طبقها القرآن الكريم ، وأصلها الرسول العظيم ﷺ ، ونص عليها العلماء والنظار ..

ومن هنا قسم العلماء الجدل إلى ممدوح ومذموم ، فالجدل الممدوح هو الذي يهدف إلى إحقاق الحق ونصرته ، ويكون بأسلوب صحيح مناسب ، ويؤدي إلى خير ..

والجدل المذموم : هو الذي لا تستقيم أهدافه ، ولا تسلم أساليبه وألفاظه ، ولا يؤدي إلى خير .

لذا جاء الأمر به مقيدًا بالتي هي أحسن ، حتى لو كان الجدال لغير المسلمين ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (١) .

٢ - وإن من البصائر الدعوية أيضًا في هذا الجانب : التعرف على أسلوب (القدوة الحسنة) والوقوف على أهميته وحسن آثاره : إن أسلوب القدوة الحسنة من أعظم الأساليب تأثيرًا في النفوس البشرية ، وسرعة في انتقال الخير إلى الآخرين ، وذلك لأن تمسك الداعية بالأمر وأخذه به عمليًا أكثر إقناعًا للمدعوين به من الحديث عنه والثناء عليه .. فبمجرد العمل بالخير الذي يدعى إليه وتطبيقه ، تحصل قناعة الآخرين بصلاحيته للتطبيق ، وتبرز محاسنه أمامهم - كما هو مشاهد في حياة الناس .

كما أن هذا الأسلوب يحقق سلامة الأخذ وضمان الصحة أكثر من غيره ، ولا سيما في الأمور الدقيقة والمسائل المهمة ..

---

(١) الآية (٤٦) العنكبوت .

ومن هنا : كان تعليم الرسول ﷺ لأمته الصلاة ، والحج مثلًا ، تعليمًا عمليًا بالقدوة الصالحة ، حيث صلى فيهم وحج وقال : « وصلوا كما رأيتموني أصلي » وكما أمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم - كما جاء في الصحاح - .

بل إن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء ، ليعلمه كيفية الصلاة عمليًا ، واقتدى به رسول الله ﷺ ، واقتدى الصحابة الكرام برسول الله ﷺ كما جاء في البخاري .

كما أن أسلوب القدوة الحسنة أعمق تأثيرًا في النفوس ، وأسرع في استجابتها لما تدعى إليه ..

ومن هنا : أشارت أم سلمة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ بالمبادرة إلى الحلق والتحلل يوم الحديبية ليقتدي الناس بفعله ، وكان كما قالت رضي الله عنها كما روى البخاري .

ودعا رسول الله ﷺ يوم الفتح بإناء من لبن أو ماء ، فشرب أمام الناس وأفطر من صيامه ، فقال المفطرون من أصحابه لما رأوا ذلك للباقين : أفطروا - كما روى البخاري .

ولما كان الناس يتأثرون بالمحاكاة والقدوة أكثر مما يتأثرون بالقراءة والسماع .. ولما كان أثره عامًا شاملًا لجميع الناس على مختلف مستوياتهم ، حتى الأميين منهم .. اقتضت حكمته سبحانه أن يرسل الرسل إلى الناس ، ولم يكتف بإنزال الكتب عليهم ، بل أرسل الرسل ، وقص على الناس قصصهم ، وعرض سيرتهم ، ثم أمر باتباعهم والاقتداء بهم .. قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (١) .

فليحرص الداعية على أن يكون داعية بعمله وسلوكه قبل أن يكون داعية بقوله ولسانه .. وليحذر كلَّ الحذر من أن يخالف قوله عمله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الآية (٩٠) الأنعام .

(٢) الآيتان (٢ ، ٣) الصف .

٣ - وإن من البصائر الدعوية في هذا الجانب أيضًا : ضرورة أن يتفهم الداعية خصيصة التطور في الأساليب والمناهج ، فلا يجمد على منهج وأسلوب .

ذلك لأنه قد يصلح منهج أو أسلوب دعوي مع شخص معين في حالة معينة ، أو عمر معين ، ولا يصلح لغيره ، أو حالة أخرى وعمر آخر .

والأصل في المناهج والأساليب البشرية أنها اجتهادية متطورة ، يمكن للدعاة أن يحسّنوا منها ويطوروا فيها بحسب مقتضيات عصرهم ، واحتياجات الناس المدعوين من حولهم .

وحسبنا دليلًا على هذا ، عمل الخلفاء الراشدين ﷺ ، والسلف الصالح وسنتهم في تطوير أساليب حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية ..

فقد عملوا على تطوير أسلوب حفظ القرآن الكريم ، من حفظه في الصدور ، وعلى السطور موزعًا في الرقاع ، إلى جمعه كاملًا في زمن أبي بكر ﷺ ، ثم إلى توحيد المصاحف زمن عثمان ﷺ ، ثم إلى تنقيطه وتشكيله .. وهكذا .

كما عمل السلف الصالح على تطوير أسلوب حفظ السنة النبوية ، بعد أن كان يكتبها بعض الصحابة ﷺ ، إلى الاهتمام بتدوينها وجمعها كاملة ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، والتدقيق البالغ في أحوال رواتها .

والعجب ممن يقف على منهج السلف الصالح في تطوير أساليب حفظ القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ثم يقف جامدًا على أساليب دعوية أخرى في الحركة والدعوة ، ولا يفكر بتطويرها ، ويتحرج من التغيير فيها ، وكأنها ثوابت شرعية في نظره !

وذلك في الوقت الذي طور فيه الأعداء من أساليبهم ، وتفننوا ولا يزالون في تنويعها وتشكيلها ، واستيعاب حياة الناس وأحوالهم بها !

ولو تبصر هؤلاء الدعاة بحقيقة دينهم ، وتفهموا خصائص دعوتهم ، لكانوا أسبق الناس إلى تحقيق الأصالة والمعاصرة في دعوتهم ..

هذه أيها الإخوة والأخوات بعض البصائر الدعوية في جانب المناهج والأساليب ، لو تبصر الناس بها ، وأفادوا منها في دعوتهم اليوم ، لتغيرت

حالهم ، واستجاب الناس لدعوتهم ، ودخل الناس في دين اللّه أفواجًا ..

وإذا كان الناس من حولنا يقبلون على بعض الدعوات الباطلة ، ويعتنقون بعض العقائد الفاسدة ، والخرافات المفضوحة بسبب أساليب الدعاة إليها ، وتزيينها للناس ..

فإن الناس أكثر قبولًا لدعوة الحق والهدى ، وأسرع استجابة لدين الفطرة ، إذا ما قدمه أصحابه للناس على الوجه الصحيح الجميل الجذاب .

وإن كثيرًا من إعراض الناس عن هدي الإسلام اليوم ، إنما يعود إلى حال دعاته ، وضعف أساليبهم ووسائل دعوتهم ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

بصائر دعوية في جانب الوسائل الدعوية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فنتناول هنا بصائر دعوية جديدة في جانب وسائل الدعوة ، وقد سبق أن تناولنا بصائر في جانب مناهج الدعوة وأساليبها .. ولكن البصائر الدعوية لا تكتمل عند الداعية حتى تشمل البصيرة في وسائله ، كما شملت جانب مناهجه وأساليبه ..

وقد جعلتها في بصيرتين أساسيتين هما :

البصيرة الأولى : التبصُّر في مفهوم الوسائل وتبين أنواعها وخصائصها ، وأنها تشتمل على الوسائل المعنوية والمادية على السواء ، وليست قاصرة على الوسائل المادية - كما يتبادر لكثير من الناس - .

فالوسيلة الدعوية هي (ما يتوصَّل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية) .

ونريد بالوسائل المعنوية : جميع ما يعين الداعية على دعوته من أمور قلبية أو فكرية ، وذلك كالتمثل بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة التي سبقت معنا في صفات الداعية ، والتخطيط والتفكير في الدعوة ، وما إلى ذلك من أمور لا تُحَسُّ ولا تُلمس ، وإنما تعرف بآثارها ..

كما نريد بالوسائل المادية : جميع ما يعين الداعية على دعوته من أمور محسوسة أو ملموسة ، وذلك كالقول والحركة ، والأدوات والأعمال .. سواء كانت فطرية كالقول والحركة ، أو كانت كسبية فنّية : كالكتابة والإذاعة والتلفاز ، والإنترنت ..أو كانت تطبيقية : كإعمار المساجد ، وإنشاء المؤسسات ، وإقامة النوادي والمخيمات ، والجهاد في سبيل الله ..

فالداعية الحكيم البصير هو الذي يعمد إلى استخدام مختلف هذه الوسائل

بأنواعها وأشكالها ، ولا يقتصر في دعوته على نوع منها ، ويهمل الأنواع الأخرى .

كما أن الداعية البصير في دعوته : هو الذي ينضبط في وسائله كما ينضبط في مناهجه وأساليبه ، ومصادره وأهدافه .. فإن للوسائل حكم المقاصد .

فلا بد أن يلاحظ عند استعمال وسيلة من الوسائل (خصيصة الشرعية) وهي : الانضباط بحكم الشرع ، ذلك لأن الدعوة في حقيقتها طريقة تطبيق الشريعة ، ومنهجها الذي رسمه اللّه لها ، فلا يصح الخروج عليها في جانب من جوانب الدعوة .

وسنشير - إن شاء اللّه إلى بصيرة في ضوابط الوسائل في البصائر التالية - ولكن مما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام :

أن بعض الناس التبست عليهم خصيصة (الشرعية) بالخصيصة (التوفيقية) ، فبنى على ذلك أحكامًا غريبة في الوسائل الدعوية ، فمنع من بعض الوسائل المعاصرة المستجدة في حياة الناس ، كالتمثيل المسرحي مثلًا ، أو النشيد الإسلامي ، بناء على أن الوسائل الدعوية وسائل توقيفية ، لا بد أن يرد عن الشارع اعتبارها صراحة ، ولا تترك للاجتهادات البشرية ، والمستجدات العصرية ، وهذا هو المراد بالتوقف فيها ، والتوقيف من قبل الشارع عليها ..

وهذا ينطبق فقط على الوسائل العبادية وأساليبها ، ولا ينطبق على الوسائل والأساليب الأخرى .

بل إن من الوسائل العبادية نفسها ما يخضع للتطوير والتجديد ، كبعض وسائل الطهارة ، وأشكال إعمار المساجد لا في أصل حكم الطهارة وأحكام المساجد .

وإذا كان الأصل في وسائل العبادة (بمعناها الخاص) التحديد والتوقيف تبعًا لكمال اللّه وعصمة شرائعه وإحاطة علمه ، فإن الأصل في الوسائل الدعوية الأخرى التطور والتجدد .. تبعًا لعادات الناس وأعرافهم ، وتبعًا لتقدم العلوم والفنون .

فإن لكل عصر أساليبه ووسائله في جميع أمور الحياة ، وإن هذه الوسائل المعاصرة قد تشترك مع وسائل عصر سابق ، وقد تختلف كليًا أو جزئيًا عنها -

كما هو ملحوظ مشاهد في كثير من الأمور ..

فالداعية البصير الحكيم : هو الذي يختار لكل عصر ما يناسبه من تلك الوسائل المتاحة .. فعندما فقدت بعض العصور وسيلة (الكتابة والطباعة) مثلًا كانت الوسيلة البديلة المتبعة لدى الدعاة والأنبياء والمرسلين : (المشافهة) والقول .. وعندما ظهرت الكتابة في حياة الناس ، استخدمها الأنبياء والمرسلون ، ونزلت بعض الكتب والصحف السماوية مكتوبة ..

فلا يتحاشى الداعية في عصره إلا الوسيلة المحرمة شرعًا ، أو التي تزيد مفسدتها على المصلحة المترتبة عليها ، أو تنال من مكانة الدعوة والداعية من بعض الوجوه ..

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أيضًا : أن لا يكتفي الداعية في جانب الوسيلة بشرعيتها وانضباطها فقط ، بل عليه أن يبحث عن الوسيلة المكافئة لدعوته ومهمته، فكلما كانت الوسيلة المستخدمة أكثر تكافؤًا مع أمر الدعوة، وأكثر تحقيقًا لمقاصدها وغايتها .. كانت أكثر طلبًا من قبله ، وكان أحرص الناس عليها .

ذلك لأن الوسيلة القاصرة والضعيفة ، لا يمكن أن توصل إلى غاية في الوقت المناسب ، ولا بالكيفية المطلوبة .

وإن تكافؤ كل وسيلة إنما يكون بحسبها ، وبحسب الغاية المستخدمة من أجلها ، فالإعداد للعدو مثلًا والعمل على اكتساب القوة المادية والمعنوية لمقاومته أمر مطلوب ولا يكفي فيه مجرد الإعداد .

وإنما يجب فيه بذل الوسع والطاقة لتكون القوة مرهبة للعدو ومخيفة له ، ولا تكون الوسيلة مرهبة ومخيفة للعدو ، إذا لم تكن مكافئة لما يملكه من وسائل، بل إذا لم تكن متفوقة عليه .

ومن هنا جاء أمر الله ﷻ لعباده المؤمنين موضحًا هذه الأبعاد ، فقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [١] .

(١) الآية (٦٠) الأنفال .

ومن هنا عمدت الدول المعاصرة اليوم إلى ما يسمى (بسباق التسلح) لترهب كل واحدة منها الأخرى .

ومما ترتب على هذا الخلط بين الخصيصة الشرعية والتوقيفية في وسائل الدعوة ، أن احتج بعض الكاتبين على عدم جواز استخدام بعض الوسائل المعاصرة في الدعوة إلى الله ، بترك الرسول ﷺ وصحابته الكرام لها وعدم استخدامها في عصرهم ؛ غافلين عن أن (مطلق الترك) لا يفيد منعًا ولا حرمة .. وإنما يفيد الترك حكمًا شرعيًا بالمنع إذا ما تحقق فيه شرطان أساسيان هما :

١ - القطع بوجود اقتضاء للفعل في ذلك العصر .

٢ - والقطع بعدم وجود مانع منع من استخدام تلك الوسيلة في ذلك العصر .

فإذا لم يتحقق الداعية من توفر هذين الشرطين ، لا يجوز له أن يحكم بالمنع من استخدام الوسيلة بمجرد تركها .

ومن هنا : تنبه العلماء الأولون لمثل هذه الشبهات ، وقطعوا الطريق على أصحابها بما أثبتوه من ضوابط وقواعد وتعريفات ، فقالوا مثلًا في تعريف السنة النبوية التي تعد حجة شرعية ملزمة ، قالوا هي : (ما روي عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير) ولم يقولوا فيها (أو ترك) دفعًا لمثل هذا الالتباس والإيهام ..

ومع هذا الوضوح في الضوابط الشرعية والقواعد المقررة ، نجد بعض علمائنا ودعاتنا المعاصرين ، إذا ما سئلوا عن حكم وسيلة جديدة لم تكن معروفة في العصور السابقة نجدهم أول ما يتبادر إليهم قولهم : أنها لو كانت خيرًا لسبقونا إليها ، ويبنون على هذه المقدمة الحكم بالمنع والتحريم لها !!

ولو تبصر هؤلاء في قواعد شريعتهم ومنهج دينهم ، لنظروا في الأمر الجديد المحدث أول كل شيء (من حيث ذاته) هل هو خير أم شر ؟ فإذا ثبتَتْ لهم خيريته الذاتية في ضوء النصوص والضوابط الشرعية ، آن لهم أن يستأنسوا على جوازه مثلًا بفعل من سبق ، واستخدام السلف الصالح لهذه الوسيلة أو تلك .

وإذا ما ثبتَتْ لهم شرّيته ، وغلبة المفسدة على جانب المصلحة فيه ، جاز لهم

أن يستأنسوا على منعه وتحريمه بترك السابقين الأولين له ، وإعراضهم عنه مع توفر دواعي استعماله في ذلك العصر ، وعدم وجود مانع من استخدامه عندهم .

وهذا هو منهج الخلفاء الراشدين رضوان اللّه عليهم أجمعين تجاه ما جد في عصرهم من أمور وما عرض لهم من مشكلات .

ولما استشهد أبو بكر ﷺ بادئ الأمر في مسألة (جمع القرآن الكريم) التي أشار بها عمر ﷺ ، بقوله : (كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول اللّه ﷺ ؟) ما كان من جواب عمر ﷺ إلا قوله : (واللّه إنه خير) دون التفات إلى سبق فعله أو عدم فعله .. وهكذا استمر الحوار بينهما في هذا ، حتى شرح اللّه صدر أبي بكر لما شرح له صدر عمر ، فأجمعا على ذلك ﷺ ، واستمر هذا المنهج سنة راشدية متبعة فيما جد من أمور وما أحدث من وسائل ..

البصيرة الثانية : التبصر في ضوابط مشروعية الوسائل الدعوية بأنواعها المتعددة :

فإنه لما كانت الدعوة الإسلامية دعوة إلى اللّه ، وعملًا أساسيًا من أعمال رسول اللّه ﷺ وأتباعه ، كان لا بد أن تكون منطلقة من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ، ومنضبطة بأحكام الإسلام في مناهجها وأساليبها ووسائلها .

ذلك لأن الإسلام لا يعرف فصلًا في الحكم بين المناهج والأساليب والوسائل من جهة ، ولا بين الوسائل والغايات من جهة أخرى ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، وإن للوسائل حكم الغايات .

وإن أي تجاهل لحكم الشريعة في جانب المناهج أو الأساليب أو الوسائل ، يُعد انحرافًا في الدعوة عن مسارها ، وخروجًا بها عن مصادرها .

ونظرًا لأخطاء بعض الناس في هذه القضية ، وتنوعهم فيها إلى فريقين ..

أ - فريق يتساهل في الأحكام في جانب الوسائل ، وكأنه يرى أن الغاية تبرر الوسيلة .

ب - فريق يتوقف فيها على ما هو وارد ، ويعامل الوسائل من حيث الثبات كما يعامل المبادئ والأهداف والغايات !!

لهذا رأيت بعد أن ناقشت الشبهة (التوفيقية) في جانب الوسائل في

البصيرة السابقة ، أن أشير على وجه الإجمال إلى مختلف الضوابط الشرعية الأساسية في هذا الجانب .

ويمكنني تلخيص هذه الضوابط الشرعية في الوسائل الدعوية في عدة ضوابط أساسية هي :

١ - أن يُنصَّ على مشروعيتها صراحة في الكتاب أو السنة ، أو يرد طلبها من الشارع بأي وجه من أوجه الطلب .

فأي وسيلة نصَّ الشارع على مشروعيتها ، أو أمر بها أو أذن باستخدامها صراحة ، فهي وسيلة مشروعة بحسب درجة مشروعيتها من وجوب أو ندب أو إباحة .

٢ - أن يُنصَّ على عدم مشروعيتها صراحة في الكتاب أو السنة ، أو يرد النهي عنها بأي وجه من أوجه النهي ، فهي وسيلة ممنوعة شرعًا ، سواء كان النهي عنها على سبيل التحريم أو الكراهة ، فعلى الداعية الابتعاد عنها واجتنابها .

٣ - أن تدخل في دائرة المباح الذي يستوي فيه جانب الفعل أو الترك : فكل وسيلة أذن بها الشارع صراحة ، أو سكت عنها ، فهي وسيلة مباحة يجوز للداعية استخدامها ؛ لأن الأصل في هذه الأشياء الإباحة . ولأن النصوص الشرعية محدودة مهما كثرت ، والوسائل متجددة متطورة ، فلا يمكن للنصوص المحدودة استيعاب ما ليس بمحدود .

فالأصل في هذا النوع من الوسائل الإباحة ، ما لم يعرض لها عارض يخرجه عن هذا الأصل ، ويمكن أن يعد من هذه العوارض أمران :

أ - أن تكون الوسيلة مختلفًا في حكمها بين العلماء ، فمنهم من يرى إباحتها ، ومنهم من يرى تحريمها .

ب - أن تكون الوسيلة مشوبة ، اختلط فيها الحلال والحرام - ككثير من وسائل الإعلام اليوم - ونظرًا : لاختلاف وجهات نظر الدعاة في هذه المسائل ، وتفاوت مواقفهم من مثلها ، أرى ضرورة الإشارة إلى شيء من ضوابطها لتكون محل نظر واهتمام من قبل الدعاة في مثلها ، ونبتعد فيها عن مواقف الإفراط أو

التفريط .

فأما بالنسبة للوسيلة التي يختلف العلماء في حكمها بين مبيح ومانع - كما جرى في حكم التصوير والتمثيل مثلًا - فأرى أن تلخص ضوابطها في أربعة أمور هي :

١ - الترخص والتوسع في استخدامها حيث تكون الضرورات والحاجات الملحة ، وتتحقق بها المصالح الدعوية العامة ، وذلك : لأنه إذا كانت الضرورات والحاجات الملحة تبيح المحظورات القطعية التي لا خلاف في حكمها ، فإن إباحتها للأمر المختلف فيه من باب أولى .

٢ - التورُّع عن استخدامها حيث الأمور العادية ، والمصالح الشخصية ، التي لا يترتب على تركها ذهاب مصلحة عامة راجحة .. ذلك لأن التورع عن الشبهات مطلوب ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

٣ - لطالب العلم المتمكن فقط : أن يبحث في المسألة المختلف فيها ، ويرجح أحد الأقوال بدليله ؛ لأن ليس قول أحد بحجة على الآخر .. ما دامت المسألة اجتهادية .

٤ - ليس لمن ترجح له أحد الأقوال : تحريمًا أو إباحة ، أن ينكر على من خالفه في الترجيح أو العمل ؛ لأن المسلّم به في قواعد الحسبة : عدم الإنكار في المختلف فيه ، وإنما يحق للمخالف أن يدعو الطرف الآخر بلطف إلى الخروج عن الخلاف ، أو يحاول إقناعه بما ترجح لديه .

وقديمًا قال سفيان الثوري رحمه الله : (إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه ، وأنت ترى غيره فلا تنهه) .

فلو عمل المسلمون اليوم بمثل هذه الضوابط في المسائل المختلف فيها من وسائل دعوية أو غيرها .. لاندفعت سلبيات الخلاف عن حياتهم ، وعاش المختلفون فيما بينهم متآلفين متحابين متعاونين كما كان أسلافهم .

هذا أيها الإخوة والأخوات عن الوسيلة المختلف فيها ، أما الوسيلة المشوبة التي اختلط فيها الحلال والحرام - كما في كثير من وسائل العصر - فإن من

البصيرة الدعوية : أن يعمل الداعية على تجريدها عن الحرام ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ، ثم يستخدمها خالصة نقية عنه .

وإن لم يستطع تنقيتها مما شابها ، فلا بد أن يوحد العلماء والدعاة موقفهم منها ، مشاركة أو معارضة ، وذلك بموازنة شرعية دقيقة توازن بين إيجابيات استعمالها ، وسلبيات تركها ، وموازنة دقيقة بين واجبهم تجاهها ، وبين قدرتهم على تحقيق ذلك الواجب .

ولعل من أدق وأجمل ما يستدل به على هذا الضابط في الوسيلة المشوبة : موقفه ﷺ من وسيلة مشوبة في عصره ، ألا وهي : (وسيلة النذير العريان) .

فقد كانت عادة العرب في الجاهلية إذا أرادوا الدعوة إلى أمر مهم ، والإنذار في أمر خطير ، يفعلون عدة أمور :

١ - يصعدون إلى مكان عالٍ كجبل أو نحوه .

٢ - ينادون بأعلى أصواتهم : وا صباحاه ، وما إلى ذلك من ألفاظ مشابهة .

٣ - يتعرون عن ثيابهم ، ليشعروا الناظر إليهم بخطر الأمر الذي ينادون الناس من أجله ، ولسان حالهم يقول : كأن العدو قد عراهم من ثيابهم ، فيسرع الناس إليهم .

فلما أراد الرسول ﷺ أن ينذر قومه بأخطر أمر ، وأعظم خبر - ألا وهو البشارة والنذارة بهذا الدين - لم يترك هذه الوسيلة الدعوية المتاحة المعتادة لأنها مشوبة (بالعُري) ، وإنما عمل على تعريتها مما شابها ، واستخدامها بعد ذلك في دعوته ، فقد صعد على الصفا ، ونادى بأعلى صوته (وا صباحاه) ، ولكنه لم يتعرَّ لذلك .. فأقبل الناس عليه فأنذرهم بما أراد ..

بل أجاز أن يقول عن نفسه : (أنا النذير العريان) كما جاء في الحديث المتفق عليه ، مع أنه الكامل المستور ﷺ .

وكفى بمثل هذا الموقف قدوة ودليلًا ، ويا له من حكمة بالغة ، وبصيرة عظيمة !!

فلو تعاون الدعاة في كل عصر على تجريد الوسائل المشوبة المنتشرة في

عصرهم من الشوائب ، وبذلوا في ذلك جهودهم بقدر استطاعتهم ، لوصلوا إلى كثير مما يريدون ، واستطاعوا أن يستخدموا من الوسائل المعاصرة المكافئة ما يستخدمه أعداؤهم بدون ضوابط ، فسلموا من السلبيات ، وحققوا كثيرًا من الإيجابيات .

أما المواقف السلبية وحدها ، فلا تقدم ولا تؤخر في إصلاح وسيلة مشوبة ، بل قد تؤخر من حيث الاضطرار إلى الابتعاد عنها وتجنبها .

٤ - **أما الضابط الأخير من ضوابط الوسائل** : فأن لا تكون الوسيلة شعارًا من شعارات الكافرين الذين أمرنا بمخالفتهم ، وعدم التشبه بهم .

ومن هنا : امتنع رسول اللّه ﷺ من استخدام وسيلة ناقوس النصارى ، وقرن اليهود في دعوة الناس إلى الصلاة ، وبحث عن غيرها حتى هداه اللّه إلى وسيلة الأذان كما روى مسلم وغيره .

نسأل اللّه ﷻ أن يبصرنا في ضوابط وسائلنا ، وأن يعيننا على حل مشكلات عصرنا ، وأن يأخذ بأيدينا إلى ما يرضيه .

★ ★ ★

الفصل السادس

بصائر دعوية في جانب المشكلات والعقبات الدعوية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فنتناول هنا البصائر الدعوية في جانب مشكلات الدعوة وعقباتها في أربع بصائر هي :

البصيرة الأولى : وهي التي تتعلق بمفهوم المشكلات والعقبات الدعوية وتحديد مصطلحها ، وسنفصلها في عدة نقاط :

١ - نريد بمشكلات الدعوة وعقباتها (مجموعة الأخطاء والمعوقات التي يقع فيها الدعاة أو يواجهونها في طريق دعوتهم ، داخلية كانت أو خارجية) حيث تشكل هذه الأخطاء والمعوقات مشكلة في سبيل دعوتهم .

وكثيرًا ما ينصرف ذهن الناس أمام مصطلح المعوقات إلى العقبات الخارجية التي يواجهها الدعاة من قبل أعداء الدعوة ، غافلين عن المعوقات الداخلية في صفوفهم ونفوسهم ، مع أنها الأخطر على الدعوة والأكبر أثرًا فيها .

ذلك لأن خطأ الداعية في مفهوم دعوي ، أو في منهج أو أسلوب أو وسيلة ، قد يفعل بالدعوة ما لا يفعله الأعداء فيها ، لأنه مرض داخلي خفي ، قد يفتك بالمريض دون أن يشعر به وينتبه إلى ضرورة علاجه .

أما العقبة الخارجية ، فغالبًا ما تكون بارزة ملحوظة للدعاة والمدعوين على السواء ، يحذر الناس منها ، ويخططون لمواجهتها .

كما أن الخطأ الصادر عن الداعية نفسه ليس كخطأ الرجل العادي ! لأن خطأ الرجل العادي قد يختص به ولا يتجاوزه .. أما خطأ الداعية في مفهوم أو منهج أو أسلوب أو وسيلة يتعدى أثره إلى الآخرين ، وقد تضر نتائجه بالدعوة كلها ، شعر بذلك أو لم يشعر ، وقد قيل : (زلَّةُ العالِم ، زلَّةُ العالَم) .

ومن هنا جاء التنبيه والتحذير من خطأ القدوة والأسوة بأساليب عديدة ، فقال سبحانه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحٗا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلْنَ قَوْلٗا مَّعْرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرٗا ۝٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (١) .

كما جاء في الحديث الشريف : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟! فَيَقُولُ : بَلَى ، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » (٢) .

٢ - لا يشترط في الأخطاء الدعوية والمعوقات الداخلية حتى تسمى مشكلات وعقبات ، أن تكون منتشرة في جميع الدعاة - وإن غلب عليها طابع العموم - ولكن يكفي فيها أن توجد في صفوف الدعاة ولو قلّوا ، أو يعاني منها المصلحون أيًّا كانوا ؛ فإن المرض الخطير إذا وجد في فرد أو أفراد دون الانتباه إليه ، سرعان ما يعمُّ وينتشر في الآخرين وهم في غفلة عنه ، نظرًا للتداخل في العلاقات الإنسانية ، وسهولة الاتصال بين الناس .

فلا يستغربنَّ أحدٌ من ذكر خطأ أو مرض دعوي سلّمه اللّه منه ، ولكن عليه أن يحمد اللّه على سلامته ، وأن يحذر منه في غيره ، ويحذر منه الآخرين ، حرصًا على سلامة الدعوة من جهة ، ووقاية منه قبل وقوعه من جهة أخرى .

٣ - ينبغي للدعاة أن يعلموا أن من التفريط في حق الدعوة ، أن تهمل

---

(١) الآيات (٣٠ - ٣٤) من سورة الأحزاب .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، رقم (٣٠٢٧) ، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، رقم (٥٣٠٥) .

المشكلات والعقبات ، ويتجاهل أمرها ، حتى تتمكن في طريق الدعوة ويصعب علاجها ، كما أن من الإفراط أيضًا : أن تضخُم الأخطاء والمشكلات ، فتصور المشكلة الخفيفة والخطأ الصغير عقبة كؤودًا يعجز الناس عن حلها وتصحيحها ، فتوقع الناس في اليأس والقنوط .

ذلك لأنه : ما من داء إلا وأنزل اللّه له دواء ، وما على الدعاة إلا أن يجتهدوا في معرفة الداء وتشخيصه ، ويبذلوا وسعهم في علاجه ، والحد من انتشاره ، ويفكروا في طرق الوقاية منه ، فالأمر كله بيد اللّه ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (١) .

٤ - إن من الحكمة في معالجة مثل هذه الأخطاء الدعوية ومواجهة تلك المشكلات : أن يهتم الدعاة بمعالجة أخطائهم ومجاهدة أنفسهم قبل أن يتجهوا إلى علاجها في غيرهم .

فقد كان السلف الصالح من العلماء والدعاة يقدمون تزكية أنفسهم على تزكية أنفس الآخرين ، ويشغلون بعيوبهم عن عيوب غيرهم .

أما نحن : فكثيرًا ما نُشغل بعيوب الآخرين عن عيوبنا ، بل ربما يرى بعضنا القذاة في عين أخيه ، ولايرى الحصاة في عينه ، مما عقد المشكلة وأخَّر الشفاء .

وأنى للمريض أن يُشفى على يد طبيب يداوي الناس وهو سقيم .

٥ - ينبغي للدعاة أن يعلموا أن من توجيهات القرآن الكريم في تشخيص المشكلات ، وكشف الأخطاء : أن يُرجع فيها إلى النفس ، قبل أن يبحث عنها في الآخرين ، ويوجه اللوم إليهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ (٢) .

وقال أيضًا : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (٣)

وقال سبحانه : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ

(١) الآية (٦٩) العنكبوت . (٢) الآية (٣٠) الشورى .
(٣) الآية (١٦٥) آل عمران .

وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (١) .

ولكن كثيرًا منّا اليوم إذا أصيب بمصيبة أو اعترضت طريقه عقبة ، أعاد الأمر مباشرة إلى غيره ، غافلًا عن تسببه في ذلك .

وإذا ما سئل عن فشل أو إخفاق دعوي ، تعلل بقوة أعدائه ومكرهم ، قبل أن ينظر إلى نفسه ونفس الدعاة من حوله ، وبدلًا من أن يعلله مثلًا بغفلة المسلمين وتفرقهم .

وإذا كان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ - كما مر معنا سابقًا - يعلل تأخير النصر للمسلمين في غزوة من الغزوات بقوله : (لا يقف الكفر أمام الإيمان من غداة إلى عشية إلا بذنب أحدثتموه أنتم أو أنا) .

ويقول في مقام آخر (أما بعد : فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأصبتم من الدنيا ما أحبَّ عدوكم، وإن اللّه تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم) (٢) .

فإذا كان هذا موقف عمر ﷺ وتعليله ، فما بالنا نحن نترفع عن ذلك ، ونغفل عن توجيه مثل هذا النقد البناء لأنفسنا وإخواننا ؟

٦ - إن الذنوب والأخطاء التي تستوجب التوبة والمراجعة ليست محصورة في مجال الأحكام العقدية والعبادية ، وإنما قد توجد في الأحكام الدعوية ، والأحوال النفسية ؛ فإن الخروج عن المفهوم الصحيح في أمر من أمور الإسلام ذنب ، والانحراف عن أصول الدعوة والخروج عليها ضلال ، ومجانبة المنهج الحكيم والأسلوب السليم مهما قلَّت خطأ .. وكل ذلك يستوجب مراجعة وتوبة .

بل إن الخطأ والذنب في جانب المنهج غالبًا ما يكون أعظم إثمًا وأكبر أثرًا من الخطأ في الحكم الواحد ، والمسألة الواحدة ؛ لأن الخطأ في الحكم والمسألة قد ينتهي في وقته ، ويسهل تداركه ، أما الخطأ في المنهج والأسلوب ؛ فكثيرًا ما

(١) الآية (٧٩) النساء .

(٢) كنز العمال (٣ - ١٥١) وحياة الصحابة (٣ - ٦٨٣) .

تترتب عليه أخطاء أخرى ، وتنتج عنه آثار وخيمة لا تحصى .

٧ - إن الجهة الدعوية الواحدة - فردًا كانت أو جماعة - قد لا تنتبه إلى خطئه بسهولة ، وإذا تنبهت إليه ، قد لا تهتدي إلى دوائه وكيفية علاجه - كما هو مشاهد عمليًا - نتيجة للقرب الشديد من الخطأ وإلفته .

لذا .. كان لا بد للنجاح في معالجة الأخطاء والمشكلات الدعوية من تعاون وثيق بين الدعاة والعاملين ، على مختلف مستوياتهم وتعدد انتماءاتهم .

ومن هنا جاء الأمر من الله ﷻ بالتعاون على البر والتقوى ، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ، فقال سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [1] .

وليعلم الدعاة أن سكوتهم عن الخطأ في أنفسهم أو في إخوانهم الدعاة لأي سبب كان ، هو نوع من التعاون على الإثم والعدوان ، ومساهمة عملية في استفحال الداء ، واستعصائه على الشفاء .

ومن هنا كان الدين النصيحة ، وكان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..

فحبذا لو تشيع بين الدعاة اللقاءات الإيمانية والحلقات التعاونية الهادفة إلى تحقيق التناصح فيما بينهم ، وتبادل الآراء في تشخيص المشكلات وأسلوب حلها - كما تشيع بينهم أحيانًا اللقاءات لبحث المشكلات العامة ، والعقبات الخارجية - وذلك لينهض العمل الإسلامي من كبوته ، ويخلص الصف الإسلامي من تلك الأخطاء ، فتحقق الإيجابيات ، وتدفع السلبيات .

٨ - التأكيد على أن سنة الله ﷻ في ابتلاء عباده بأنواع الابتلاءات الكثيرة كما تكون لتمحيص النفوس ، واختبار القوة من الضعف ، والصبر من الجزع من جهة تكون أيضًا للتنبيه إلى الأخطاء ، والتقصير في بعض الواجبات من جهة أخرى .. ، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا

(١) الآية (٢) المائدة .

لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (١) ، كما قال : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) .

ولا يصح أن نعلل ابتلاءاتنا دائمًا بالعلة الأولى دون انتباه إلى العلة الثانية ، كما يفعل كثير منا ، فنغطي بذلك أخطائنا ، ونرسخ أمراضنا وأدواءنا من حيث نشعر أو لا نشعر .

وإلا صار مثلنا مثل المريض الذي يلحظ في مرضه ومصابه ملحظ رفع الدرجات ، وهو متلبس في المعاصي والآثام ، ولا يلحظ فيه التنبيه إلى الأخطاء وتكفير السيئات ..

٩ - إن الأخطاء الدعوية ، والمشكلات الداخلية تشتمل على أنواع عديدة متنوعة ، منها ما يتعلق بالمفاهيم الدعوية ، ومنها ما يتعلق بالأمراض النفسية ، ومنها ما يتعلق بالأخطاء المنهجية ، ومنها ما يتعلق بالانحرافات السلوكية .. وما إلى ذلك من جوانب عديدة يضرُّ جميعها بالدعوة ضررًا بليغًا .

ومن هنا رأيت أن أتناول في هذه البصائر الدعوية أبرز هذه الأخطاء ، محاولًا جمع المتشابه فيها ، في إطار من تلك الأطر ، مع الإشارة إلى المعالم الأولية في سبيل علاجها والتخلص منها .

فإن من الأخطاء والمشكلات الراجعة إلى جانب المفاهيم الدعوية ما يلي :

١ - خطأُ كثير من الدعاة في مفهوم الدعوة الإسلامية ، وتحولها عند كثير منهم من دعوة ربانية هادية وإرث نبوي شريف ، إلى تنظيمات حزبية ، وشكليات نظرية ، تأثرًا بواقع الدعوات الأخرى ، ومحاكاة لها ..

والدعوة في حقيقتها : دعوة إلى الله ، وعمل على تحقيق مرضاته ، وقيام بوظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومتابعة لهم فيها ، فهي أبعد ما تكون عن أهداف التنظيمات الوضعية ، وطبيعة الدعوات الأرضية ، تتميز في مناهجها وأساليبها ووسائلها ، وتنضبط في مصادرها وأدلتها ومرجعيتها ..

---

(١) الآيات (١٥٥ - ١٥٧) البقرة .
(٢) الآية (٣٠) الشورى .

وقد انتشر هذا الخطأ واستشرى هذا المرض في نفوس كثير من الدعاة ، وأثر في مناهجهم وأساليبهم .. وحول بعضًا منهم من الدعاة هادين مهديين إلى رجالات دنيا ، تسيرهم مطامعهم وطموحاتهم ، وتحكمهم منافعهم ومصالحهم ..

فلا بد من العودة بالدعوة الإسلامية إلى مفهومها الصحيح لتكون دعوة ربانية هادية ، كما لابد من الحذر من طغيان النظرة التنظيمية على المعاني الإيمانية عند الدعاة ، ليسلم للدعوة الإسلامية مفهومها ، ويظهر نقاؤها وصفائها ، وتبرز خصائصها وآثارها ..

٢ - قَصْرُ بعض الدعاة أفرادًا وجماعات مفهوم الدعوة على عنصر واحد من عناصرها أو أكثر ، ودعوتهم إلى العمل به دون غيره ، وإنكارهم على غيرهم من الدعاة أن يعملوا بالعناصر الأخرى ! حتى أصبحت الدعوة عند بعض الناس تبليغًا فقط أو تعليمًا ، أو سياسة ، مما أثر في إضعاف الدعوة وشوَّه جمالها من جهة ، وأوقع بعض الدعاة في النيل من بعضهم بعضًا من جهة أخرى .

وقد سبق معنا : أن الدعوة الإسلامية تبليغ وبيان ، وتعليم وتربية ، وتطبيق وتنفيذ .

وإذا كان مقبولًا من بعض الدعاة أن يتخصصوا في العمل بعنصر واحد أو أكثر من عناصر الدعوة ، تبعًا لاستعداداتهم وإمكاناتهم وظروفهم .. فإنه لا يقبل من هؤلاء وأولئك أن ينظروا إلى العمل بالعناصر الإسلامية الأخرى نظرة استنكار ، أو يرون ذلك خروجًا عن طبيعة الدعوة ووظيفتها .

٣ - الخطأ في مفهوم التعددية العلمية والعملية في العمل الإسلامي ، وإساءة فهم الخلاف الواقع بين المسلمين ، والغفلة عن طبيعته وأسبابه وحكمه .

مما فرق الصفوف ، وجعل من الإخوة المتعاونين أعداء متشاكسين ، وعمَّق في النفوس الفردية والأنانية ، وأقام الحواجز النفسية بين الدعاة بسبب تلك الانتماءات ، وأشاع روح العصبية والحزبية .

ولو تبصر الناس في حقيقة هذا التعدد ، وفي أسباب هذا الاختلاف ، وعرفوا أنه يعود إلى أسباب عديدة أهمها :

أ - طبيعة النصوص الشرعية المحتملة لأكثر من معنى ، سواء كانت آيات

قرآنية ، أو أحاديث نبوية ، أو سيرة عملية .

ب - طبيعة العقول البشرية وتفاوتها في الفهم والإدراك لتلك النصوص ، واستنباط الأحكام والفوائد منها ، واستخلاص السنن والمناهج من مجموعها ..

ج - غياب الوحدة السياسية للأمة المسلمة المتمثلة في الإمام المسلم الذي يرفع حكمه الخلاف في المسائل الاجتهادية .

د - رغبة العاملين للإسلام في استيعاب أكبر عدد ممكن من المسلمين في إطار الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي ، حفاظًا على الشعوب الإسلامية من الضياع ، وصونًا لها عن مطامع الأعداء .

ولا يخفى على أحد مدى تفاوت أمزجة المسلمين ومشاربهم ، وتعدد آرائهم واجتهاداتهم التي لا يمكن أن يستوعبها عمل واحد ، أو اجتهاد واحد ، ولا سيما في غياب الجماعة الكبرى التي يعترف لها الجميع بالكمال .. ولا يجدون معها حاجة لوجود أي تجمع آخر .. وهكذا .

فلو عرف الدعاة هذه الأسباب والدواعي إلى التعددية اليوم وأمثالها ، لما أنكر بعضهم على بعض ، ولتعاونوا جميعًا في خدمة هذا الدين ، يعترف بعضهم بفضل بعض ، وينصح بعضهم بعضًا ، ويعذر بعضهم بعضًا .

البصيرة الثانية : وهي التي تتعلق بالأخطاء والمشكلات الدعوية المتعلقة بالمناهج والأساليب ، ولعل من أبرز هذه الأخطاء :

١ - غفلة بعض الدعاة عن الإفادة من السنن الربانية الثابتة في حياة الدعوات ، أو ضعف تعاملهم معها ، مما أوقع كثيرًا منهم في التخبط والاستعجال للنتائج من جهة ، وفي اليأس والقنوط من جهة أخرى .

كما ترك أثرًا كبيرًا في بناء الدعوات المعاصرة وحركتها ، وأخرها عن الوصول إلى أهدافها .

ولو تبصر الدعاة في هذا ، وراعوا السنن الإلهية التي عرضها علينا القرآن الكريم في دعوة الأنبياء والرسل ، ولاحظوها في خططهم ومناهجهم ، لاشتد صبرهم ، وزاد أملهم وقرت عينهم .

وحسبهم عبرة في أن نوحًا ﷺ مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وأن محمدًا ﷺ مكث في مكة مع أصحابه ثلاثة عشر سنة ، واضطر بعدها إلى الهجرة ، وهو صابر ثابت ، يأمر أصحابه بالصبر والمصابرة ، وينهاهم عن الاستعجال .. حتى هيأ الله لهم الفرج في المدينة المنورة ، ومكن لهم دينهم ، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا .

٢ - تكرار حدوث الأخطاء في طريق الدعوة ، وقلة الاستفادة من التجارب والأخطاء السابقة ، وأخذ العبرة منها .

فإن وجود الأخطاء الدعوية أمر طبيعي نظرًا للضعف البشري وقصوره ، ولكن المستنكر في ذلك تكرار الخطأ وعدم الإفادة من التجارب السابقة !!

فكم من أخطاء دعوية تتكرر من زمن إلى آخر ، أو في موطن بعد آخر دون تنبه لها أو تحرز منها ، وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه : (لا يلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين) ، وجاء في حديث الترمذي : (كل ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوابون) .

٣ - إهمال كثير من الدعاة ترتيب الأولويات في عملهم ، وضعف الموازنات بين الواجبات والإمكانات ، وبين المفاسد والمصالح .

مما جعل بعضهم يقدم الهام على الأهم ، بل الأمر التحسيني التكميلي أحيانًا على الأمر الضروري والحاجي .

كما جعل بعضهم ينطلق من خلال رؤيته للواجب المطلوب ، دون نظرٍ إلى الإمكانات والقدرات .

ولا غرابة أن يقع كثير من العاملين للإسلام في هذه الغفلة ، أو ذاك الخلل ، في وقت ازدحمت فيه عليهم الأهداف ، وتعاظمت فيه الواجبات ، وكثرت فيه الضغوط الداخلية والخارجية ، مع ضعفهم في قدراتهم وإمكاناتهم .

يصحو المسلم من غفلته ، فيرى كمًّا هائلًا من الواجبات المتراكمة أمامه ، وإهمالًا كبيرًا لهذه الواجبات من حوله ، وغفلة عنها .. فيدفعه الشعور بالواجب إلى تحمل مسؤوليات أكبر من إمكاناته ، ووضع أهداف قريبة أو بعيدة

تعسر عليه ، يتحرك بها ذات اليمين وذات الشمال ، باذلًا في سبيل تحقيقها ما يملك من قدرات ، ومتعجلًا في سبيلها الخطوات .

فتتعثر خطواته ، وتضيع قدراته ، ويجد نفسه في كثير من الأحياء يراوح مكانه ، أو يتراجع عن مواقعه !!

وهكذا تتكرر هذه الظاهرة يومًا بعد يوم على مستوى الأفراد والجماعات ، ويقع المسلمون في حيرة من أمرهم ، وينفذ إلى قلوب بعضهم الإحباط واليأس ، ويجد أعداؤهم في هذه الحال ثغرة واسعة يلجون من خلالها ، يمكنون فيها لباطلهم ، ويضعفون أمل المسلمين في الوصول إلى أهدافهم .

من هنا : كان لابد للدعوة البصيرة من تناول هذه الظاهرة الخطيرة دراسة وتحليلًا ، وتجلية معلم (تحديد الأهداف ، وترتيب الأولويات ، في ضوء الموازنة بين الإمكانات والواجبات) تجلية كاملة ، مساهمة في تسديد الخطوة ، وترشيد الصحوة ، حتى لا تتكرر المآسي والآلام .

هذه أيها الإخوة والأخوات مشكلات وأخطاء تتعلق بجانب المنهج .

أما الأخطاء المتعلقة بالجانب النفسي فكثيرة أيضًا ، ولعل من أخطرها :

١ - ضعف التوكل على الله ﷻ واعتماد بعض الدعاة في دعوتهم على بعض الأسباب المادية والقوى البشرية :

فكثيرًا ما يفتن بعض الدعاة بكثرة الجماهير ، وتصفيقهم لهم والتفافهم حولهم ، كما يفتنون بما أنعم الله به عليهم من آليات قوية ، وأسباب مادية ، فيرون أنفسهم أكبر من حجمهم ، أو يستصغرون قوة عدوهم ، فيقدمون على ما لا يحسنون ، وتخذلهم الأسباب المادية ، وتنصرف عنهم القوى البشرية ، فيرون أنفسهم ضعفاء وحيدين في الساحة ، يعضون أصابعهم من الندم والحسرة .

وإن لهم في أحداث غزوة حنين درسًا وعبرة ، حيث أعجب بعض المسلمين بكثرتهم ، وقال أحدهم : لن نغلب اليوم من قلة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

٢ - شيوع بعض الأمراض الاجتماعية الخطيرة بين صفوف الدعاة ، ولا سيما الأمراض التي وصفها الرسول ﷺ بأنها من المهلكات : كالشح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، وما إلى ذلك من أمراض فتاكة من الكبر والعجب والخيلاء ، وحب الزعامة والرياسة والوجاهة .

فإن مرضًا من هذه الأمراض النفسية الخطيرة يكفي ليدمر الفرد والجماعة إذا فشا فيها ، فكيف بها إذا اجتمعت في فرد أو جماعة في وقت واحد ..

ولعل من الملاحظ في الحياة الدعوية : أنه إذا سلم بعض الدعاة من الشح المطاع ، والهوى المتبع ، فقلما يسلم بعضهم من الدنيا المؤثرة أو الإعجاب بالرأي !!

وأنى لفرد أو جماعة أن تنجح في دعوتها إذا كانت تنظر إلى رأيها واجتهادها وفهمها على أنه الصواب المطلق ، وإلى رأي الآخرين واجتهادهم على أنه الخطأ المطلق !!

وأين هذا من فعل السلف الصالح الذين كان لسان حالهم يقول : (ما أنا عليه صواب ويحتمل الخطأ ، وما عليه غيري خطأ ويحتمل الصواب) .

ولكم ضعفت بعض الدعوات اليوم ، وافترقت صفوفها بسبب مرض من هذه الأمراض !! .

فكم من داعية بسبب الإعجاب بالرأي ، قاطع إخوانه وفاصلهم لأنهم خالفوه في مسألة اجتهادية أو موقف دعوي !

وكم من دعوة قضي عليها بسبب مثل هذه الخلافات !!

وكثيرًا ما ينفذ الشيطان إلى هذه النفوس المريضة فيصور لها أن مقاطعتها لإخوانها ، ومفاصلتها لهم ، إنما هي جرأة في الحق ، وأن هذا هو موقف من لا تأخذه في الله لومة لائم ، فتُصرُّ على مواقفها المتشنجة و غير مبالية بما يترتب

(١) الآيات (٢٥ ٢٧) سورة التوبة .

عليها من فساد .

وإذا سئلت عن موقفها هذا ، استدلت عليه بمقولة عبد اللّه بن مسعود ﷺ الذي روي عنه أنه قال : (الجماعة أن تكون مع الحق ولو كنت وحدك) ، ناسية المقولة الأخرى للصحابي الجليل نفسه التي فيها (ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللّه حسن) [١] .

فتراها تخلط بين ما كان مسألة قطعية ، وحقًّا ثابتًا لا يجوز الخلاف فيه ، وبين ما كان مسألة اجتهادية ، وحقًّا مختلفًا فيه !!

فلا بد أن يُنَزَّل القول الأول على الحق القطعي ، والمسألة الثابتة التي لا يجوز التنازل عنها ، ولا التراجع عنها بسبب قلة أو كثرة .

كما يُنَزَّل القول الثاني : على الحق الاجتهادي الذي تختلف فيه الأنظار ، والذي يؤجر في مثله المجتهد سواء أخطأ أو أصاب .. والذي يحسن في مثله أن يتنازل القليل للكثير أوالجاهل للعالم والصغير للكبير .. أو يجب فيه التنازل إذا كان في قضية عامة ، تتعلق بعموم المسلمين ومصالحهم .

البصيرة الثالثة : وهي التي تتعلق بسلوك بعض الدعاة ، ولعل من أهمها :

١ - شيوع ظاهرة انفصال العلم عن العمل ، والفكرة عن التطبيق عند كثير من الدعاة ، مما شوّه كمال الدعوة وجمالها ، وأفقدها مصداقيتها عند كثير من المدعوين .

حتى أصبحت ترى في الدعاة من يحسن الحديث عن بعض محاسن الإسلام بما قد لا يحسنه غيره ، ثم ترى في سلوكه وسلوك أهله وذويه بُعدًا كبيرًا عن هذه المحاسن ، ومخالفة صريحة لتلك الكمالات التي يدعو إليها .

وأذكر أن صديقًا في أيام الشباب كان معجبًا بكتابات عالم من العلماء المسلمين حول الحجاب في الإسلام وبيان محاسنه ، ومركزًا في كتاباته عن السفور والتبرج وآثاره الخطيرة في حياة الناس ..

فلما زار مدينة هذا العالم ، دفعه إعجابه به ، وتعلقه بكتاباته إلى البحث عنه وزيارته في بيته مستفيدًا ومستزيدًا من علمه وأفكاره .

(١) رواه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة ، رقم (٣٤١٨) .

ففوجئ ذلك الشاب بزوجة ذلك العالم غفر الله له تستقبله من الباب في لباسها العادي دون حجاب ، مظهرة شعرها ورأسها ويديها .

فظنها بادئ الرأي خادمة تخدمه في منزله ، وإذا بالشيخ عندما يقابله يرحّب به ويعرفه على زوجته هذه ، ويعرف زوجته به .

فقال الشاب مستنكرًا : ما هذا يا شيخ ؟ ففهم الشيخ سبب استنكاره ، وبدأ يحدثه عن تاريخ السفور والتبرج في بلده ، وعن أثر الاستعمار فيه ، بكلام طويل جميل مثل الذي كان يقرأه عنه .. مما زهّدَ الشاب فيه وفي علمه ودعوته !!

وهكذا تساهم هذه الظاهرة الخطيرة في حياة الدعاة وسلوكهم ، في تنفير المدعوين وابتعادهم عن دعاتهم .

ومن هنا جاء استنكار القرآن لها كبيرًا ، حيث يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وكان جزاؤها في الآخرة عظيمًا – كما جاء في حديث الرجل الذي تندلق أقتاب بطنه في جهنم ، ويدور حولها كما يدور الحمار حول الرحى .

٢ – شيوع ظاهرة انفصال الفقه عن الفكر ، والفكر عن الفقه في صفوف الدعاة ، حتى أصبح كثير من العلماء والدعاة صنفين :

أ – صنف غلب عليه الفقه والعلم بالأحكام الشرعية ، وقلّت حركته ودعوته .

ب – وصنف غلبت عليه الحركة ، وطابع الفكر ، وقلّ علمه بالأحكام الشرعية .

مما أحدث خللًا كبيرًا في المفاهيم والتصورات ، وخروجًا عن الأحكام الشرعية لدى كثير من الدعاة ..وأوقع الدعاة في تناقضات غريبة ، وجرّهم إلى مواقف عجيبة .

وحدث مرة لمفكر إسلامي كبير رحمه الله وغفر له أن جاء إلى الحج مع مجموعة من أصحابه ، فلما رأى زحام الناس في منى أيام الرمي ، فكر في الأمر وقال لمن حوله : إن الله لم يكلفنا حرجًا ، وإنه يريد بالمسلمين اليسر ولا يريد

---

(١) الآيات (٢ – ٣) الصف .

بهم العسر .. وإن الرمي ما شرع إلا تجسيدًا لعداوة الشيطان للإنسان .. فتعالوا نرم هنا في مكاننا قريبًا من الخيمة ولا نُزاحم الناس ، فنُؤْذِي ونُؤْذَى ، ثم رمى في مكانه وهو يقول : (طاعة للرحمن وإرغامًا للشيطان) وعاد إلى خيمته .. ولا أدري أي طاعة هذه للرحمن ، وأي إرغام هذا للشيطان !!

وأذكر مرة أني كنت في زيارة أخ كريم ، وقريب عزيز ، كانت زوجته تقرأ لبعض الفتيات والنساء كتابًا في الفقه اختارته من المكتبة الإسلامية الحديثة ، يعرف (بفقه النساء) فمرّ معها قول المؤلف رحمه اللّه وغفر له : (أنه كان يُفتي بتحريم مصافحة الرجال للمرأة الأجنبية عنهم ، ثم رجع عن هذه الفتوى ، وأصبح يفتي بجواز ذلك ، وعلل رجوعه هذا بما روي عن رسول اللّه ﷺ أنه صافح امرأة أجنبية عنه يوم العقبة ، أو أنه أمر غيره من الصحابة أن يصافحوا النساء في البيعة نيابة عنه .. وأحال هذه الروايات إلى تفسير الإمام القرطبي .. رحمه الله .

فاستغربت هذه الداعية هذا الحكم ، وعرضت عليه الكتاب ، فرجعت مباشرة إلى الإحالة التي ذكرها في تفسير القرطبي ، فإذا بي أجد القرطبي رحمه الله يقرر عدم الجواز ، ثم يشير إلى ما اعتمده بعضهم في قوله بالجواز بناء على مثل هذه الروايات غير الثابتة والضعيفة ، والتي جعلها صاحبها دليلًا على الجواز ، ومبررًا لرجوعه عن فتواه !

ومثل هذا كثير في صفوف الدعوة الإسلامية ، ولاسيما يوم أصبح في الناس من يسمى مفكرًا وآخر فقيهًا !!

فتوزع الناس بين هاتين الطبقتين ، وتبع معظم الشباب هؤلاء المفكرين الذين كانوا أقرب إليهم من أولئك الفقهاء ، لأنهم عاشوا هموم الدعوة المعاصرة بزعمهم ، في الوقت الذي ابتعد فيه كثير من أهل العلم والفقه عن صفوف الدعوة ، واكتفوا بتعليم من يأتي إليهم .. حتى زهد الناس فيهم وفي علمهم ..

وقد حذّر الرسول ﷺ قديمًا من هذه الظاهرة الخطيرة ، فقال : (إِنَّ اللّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا ينتزعه مِنَ الْعِبَاد ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ

عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) [١] .

لذلك أيها الإخوة والأخوات ، كان لابد لعلاج هذه الظاهرة السلوكية الخطيرة من إشاعة للوعي الفقهي بين أبناء الدعوة ، لينشأوا فقهاء وعلماء ..

وإن المسؤولية في هذا تقع على عاتق الجميع دعاة وعلماء وشبابًا ، فإن الوعي الفقهي قد أصبح اليوم ضرورة حيوية ، وحاجة دعوية أكثر من كل عصر مضى ..

٣ - ومن المشكلات والأخطاء السلوكية أيضًا :

ضعف العلاقات الأخوية بين المؤمنين عامة ، وبين الدعاة إلى الإسلام خاصة : مما أساء نظرة بعضهم إلى بعض ، وظنّ بعضهم في بعض .. وجرأ كثيرًا منهم على إصدار الأحكام على غيرهم بالتكفير تارة ، والتضليل والتبديع أخرى ، ففرق بين صفوفهم ، وباعد بين قلوبهم وأفكارهم ، وخالف بين مواقفهم ..

حتى أصبح بعض الدعاة ينظر إلى الداعية من غير جماعته ، أو على غير منهجه إلى عدو لدود ، أو تاجر منافس من تجار الدنيا .. !

فتراه قد يحب ويقرب شخصًا لا يستحق الحب لأنه من جماعته ، ويكره ويبعد شخصًا أحق بالقرب والمحبه منه لصلاحه وتقواه ، لأنه ليس من جماعته .. وهكذا اختلت مقاييس بعض الدعاة في الحب والبغض داخل العمل الدعوي ، ناسين أن من أوثق عرى الإيمان (الحب في الله والبغض في الله) .

ولا بد لعلاج هذا الخطأ من الاهتمام بالتربية الصحيحة المتوازنة القائمة على الحب في الله والبغض في الله ، وعلى جعل الولاءات كلها على أساس الإيمان والعمل الصالح ، قبل أن تكون على أساس القرابة أو الإقليم أو التنظيم .

والاهتمام بالتربية على معاني الإخوة الإسلامية العامة على وجه لا تطغى فيه الأخوات الخاصة على الأخوات العامة .. والعمل على رفع الحواجز الانتمائية على مستوى الأفراد ، ونبذ العصبية الحزبية على مستوى الجماعات .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، رقم (٩٨) ، ومسلم ، كتاب العلم ، رقم (٤٨٢٨) .

٤ - ومن المشكلات والأخطاء السلوكية : تواكل كثير من المسلمين وإهمالهم الأخذ بالأسباب المادية ، وإحجامهم عن دراسة العلوم التجريبية بعد أن كانوا أساتذة العالم فيها ، ولا سيما في وقت تعد هذه الأسباب المادية من أبرز خصائص التقدم في هذا العصر .

مما جعل المسلمين عالة على غيرهم في كثير من مواردهم ، وأسس عيشهم ، ومصادر قوتهم !

فعلى الدعاة أن ينبهوا الناس إلى هذا الداء ، ويدفعوهم إلى الاهتمام بالعلوم التجريبية ليكونوا على مستوى عصرهم فيها .

وعلى الجماعات أن توجه أبناءها إلى التخصصات العلمية المفيدة في جميع جوانب الحياة قيامًا بالواجبات الكفائية من جهة ، ودفعًا للسلبيات الكبيرة المترتبة على هذا الإهمال من جهة أخرى ..

هذه أيها الإخوة والأخوات أبرز المشكلات والأخطاء الدعوية الداخلية ، وهذه أخطارها ومحاذيرها ، وهذه بعض المعالم في سبيل علاجها .

البصيرة الرابعة : وهي التي تتعلق بالعقبات الخارجية ومعالم علاجها ، ولعلنا نستطيع أن نُجمل العقبات الخارجية في عدة أمور أساسية هي :

١ - مكر الأعداء المستمر بالمسلمين ، وكيدهم لهم ، وتخطيطهم الدائم للقضاء على الدعوة الإسلامية .

٢ - تعاون الأعداء فيما بينهم على تطبيق هذا المكر ، وتنفيذ تلك المخططات التي يضعونها .

٣ - تنوع أساليب الأعداء في مواجهة الدعوة والدعاة .

٤ - قُوّة وسائلهم المادية ، وتسخيرهم العلوم الحديثة ، والدراسات والتقنيات في سبيل تحقيق أهدافهم .

أما العقبة الأولى : وهي المكر والكيد والتخطيط لمحاربة الدعوة والدعاة ، فهي سنة من سنن اللّه الثابتة في هذه الحياة ، ومعلم من معالم الصراع بين الحق والباطل في تاريخ الدعوة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وقال أيضًا : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (٤) ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (٥) .

كل هذه النصوص القرآنية أيها الإخوة والأخوات تؤكد ثبوت المكر والكيد لهذا الدين ، كما تؤكد شدته واستمراريته ..

أما العقبة الثانية : وهي تعاون الأعداء في سبيل تطبيق هذا المكر والكيد : فهذه أيضًا حقيقة قائمة ، وسنة ثابتة ، كشف عنها القرآن الكريم وأخبر بها الرسول العظيم ﷺ ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (٦) .

وجاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود وأحمد : (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) .

أما العقبة الثالثة : وهي تنوع أساليب الأعداء في مواجهة الدعوة والدعاة :

---

(١) الآية (٣٠) الأنفال .
(٢) الآية (٣٣) سبأ .
(٣) الآية (٤٦) إبراهيم .
(٤) الآية (٤٢) الرعد .
(٥) الآيات (١٥ - ١٧) الطارق .
(٦) الآيات (٤٨ - ٥٣) سورة النمل .

فإن أساليب الأعداء في هذا كثيرة وعديدة ، فمنهم من يدخل على المسلمين في مواجهات صريحة مكشوفة ، للقضاء عليهم واستئصال دعوتهم ، ومنهم من يحاول الاحتواء للدعوة وأصحابها ، ومنهم من يعمد إلى المراوغة والمخادعة .. ومنهم من يستدرج الدعاة إلى ما فيه حتفهم وهلاكهم ..

فكلما استنفد الأعداء أسلوبًا أو ثبت لهم فشله في مكان ، اختاروا أسلوبًا آخر جديدًا مناسبًا وعملوا على تطوير أساليبهم باستمرار على وجه يحقق لهم أهدافهم ويوصلهم إلى غاياتهم ..

وقد عرض القرآن كثيرًا من تلك الأساليب المتنوعة التي استخدمها أعداء دعوة اللّٰه على مدى التاريخ ، والتي لا يزالون يكررونها ويطورون فيها إلى اليوم .

أما العقبة الرابعة : وهي المتمثلة في قوة وسائلهم المادية ، وتسخير العلوم الحديثة والدراسات والتقنيات في سبيل تحقيق أهدافهم : فإننا نرى بأم أعيننا ما وصلوا إليه من تقدم علمي وتقني في مختلف جوانب الحياة المادية .

كما نرى كثرة مراكز الأبحاث والدراسات التي ينشؤونها ويصرفون عليها في سبيل دراسة واقع العالم الإسلامي من جميع جوانبه المادية والمعنوية .

كما يعقدون المؤتمرات والمعاهدات والندوات والاتفاقات بينهم وبين تلك الدول الضعيفة ليتمكنوا منها .

فلا يوفرون وسيلة من الوسائل في سبيل تحقيق أهدافهم ، عدا عن تفوقهم العلمي والتقني ..

هذه هي أبرز المشكلات والعقبات الخارجية التي تواجه الدعوة الإسلامية اليوم ، وتعوق مسيرتها .

والمتتبع لواقع الدعوة يرى الدعاة يجتهدون دائمًا في معالجة مثل هذه العقبات ، وتختلف آراؤهم واجتهاداتهم في الأساليب والوسائل المتّبعة في ذلك .

ولكن الملاحظ : أنهم كلما عالجوا مشكلة أو عقبة ، برزت أمامهم تلك العقبة والمشكلة في ثوب جديد وصورة مغايرة .. مما جعل كثيرًا منهم في حيرة من أمرهم ، حتى كاد يصل الأمر عند بعضهم إلى نوع من الاستسلام أو اليأس !

وهذه الظاهرة تعود في حقيقتها إلى سببين أساسيين هما :

١ - ضعف المسلمين ، وتحكم مشكلاتهم الداخلية فيهم ، مما يضعفهم عن معالجة المشكلات الخارجية .

٢ - قوة الأعداء في مناهجهم وأساليبهم ووسائلهم .. وأنى للضعيف أن يواجه القوي ! .

كل هذا يدعونا أيها الإخوة والأخوات إلى أن نختار طريقًا جديدًا في معالجة هذه المشكلات الخارجية ، وهي :

التنبيه إلى المعالم الإلهية والسنن الربانية في هذا الأمر ، ذلك لأن المشكلات الخارجية - كما سبق - مشكلات قديمة ، واجهت الدعوة إلى الله في جميع مراحل تاريخها ..

فما من رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا وقد واجه وقومه المؤمنون معه مثل هذه العقبات والمشكلات ، وكانت العاقبة للمؤمنين بعد ذلك .

ولم تكن العقبات في زمنهم خفيفة أو بسيطة - كما يتوهم البعض - وإنما كانت في بعض الأحوال والأزمان على أشدها وأقواها ، والشدة والخفة أمران نسبيان من وقت لآخر بحسب طبيعة كل عصر وإمكاناته ..

ولكنها سنة الله الثابتة التي لا تتغير : قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [1] ، وقال أيضًا : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [2] .

كما قال معللًا بعض تصرفات الأعداء ، ومذكرًا بعاقبة من قبلهم ، ومبصرًا بسنته الثابتة : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى

(١) الآية (٧٧) الإسراء .　(٢) الآية (٦٢) الأحزاب .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ (١) .

وقد لخص الله ﷻ معالم معالجة هذه العقبات الخارجية التي تواجه الدعوة الربانية مهما كان نوعها في أمرين اثنين متلازمين مترابطين ، هما :

١ - التقوى . ٢ - الصبر .

فقد جاءت آيات عديدة تربط بين هذين الأمرين في مجال معالجة العقبات والنجاة من كيد الأعداء ومكرهم فقال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٢) .

وقال أيضًا : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٣) ، كما قال بعد عرض العقبات والمشكلات التي واجهت يوسف ﵇ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

ولكننا أيها الإخوة والأخوات : كثيرًا ما نمر على هذه الآيات القرآنية وأمثالها دون تنبه إلى معانيها ، وإلى أنها تقرر حقيقة قاطعة ، وسنة ثابتة في الصراع بين الحق والباطل إلى يوم القيامة ، لا بد للمسلمين من الإفادة منها ، والعمل على أساسها ، وإلا كان عملهم دون جدوى ..!

ومما يجدر التنبه إليه والتبصر به في هذا المقام : أن التقوى التي يتحدث عنها القرآن ويأمر بها ويكررها على مسامعنا ، ليست كلمة تقال ، أو دعوى تدعى ، وإنما هي حالة نفسية خاصة ، تعرف بآثارها ومظاهرها ..

---

(١) الآيات (٤٢ - ٤٥) فاطر .
(٢) الآية (١٢٠) آل عمران .
(٣) الآية (١٨٦) آل عمران .
(٤) الآية (٩٠) يوسف .

كما أن الصبر المذكور في هذه الآيات الكريمة ليس أمرًا هينًا ، وإنما هو من عزائم الأمور التي تتطلب جهادًا ومجاهدة ، والتي تعرف بمظاهرها وآثارها أيضًا .

ولعل من أبرز مظاهر التقوى المطلوبة في مواجهة العقبات :

١ - إخلاص المؤمن لله ﷻ في نيته وقوله وعمله وجميع شؤونه ، فالإخلاص هو الذي يقي الأعمال من أن تحبط وتضيع آثارها ، وهو الذي يقي صاحبه من كيد الأعداء في الدنيا ، ومن نار الله في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) . وجاء في الحديث الشريف : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) (٢) .

٢ - ومن مظاهرها أيضًا : التزام طاعة الله سبحانه واجتناب نهيه ، ومن هنا عرف بعض العلماء التقوى بقوله : (أن لا يراك الله حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك) .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

٣ - ومن مظاهر التقوى : التواصي بين المؤمنين بالحق والصبر ، وتبادل النصيحة والشورى فيما بينهم ، والتآمر بينهم بالمعروف والتناهي عن المنكر .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٤) .

وجاء في الحديث الشريف : (الدين النصيحة) فجعلها أساس الدين وجوهره .

---

(١) الآية (١٤٦) النساء .

(٢) متفق عليه ، رواه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، رقم (١) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، رقم (٣٥٣٠) .

(٣) الآيات (٧٠ ٧١) الأحزاب . (٤) الآية (٣٨) الشورى .

٤ - ومن مظاهرها أيضًا : إتقان العمل الصالح ، والاستمرار عليه ، وتوخي الحكمة فيه ، قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وجاء في الحديث الشريف المتفق عليه : (وكان أحب الدين إليه ما دام صاحبه عليه) ، وجاء في حديث آخر : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه) .

ومن العمل الصالح الذي يدخل في هذا : الاستمرار في دعوة الآخرين إلى الحق والهدى ، والحرص على هداية الناس ، وعدم اليأس من صلاحهم ، فبالدعوة الصحيحة الحكيمة قد ينقلب العدو صديقًا ، وتتحول قوة الأعداء إلى قوة للمسلمين - كما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية - .

٥ - ومن ذلك أيضًا : تحقيق وحدة الصف بين العاملين ، ونبذ الشقاق والتفرق عنهم ، ولا سيما عند مواجهة الأعداء ، قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٣) .

٦ - ومن ذلك أيضًا : اللجوء إلى الله وحده ، والإكثار من ذكره ، والتضرع إليه في السراء والضراء ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

هذا عن مظاهر التقوى المطلوبة عند مواجهة الأعداء .

أما عن الصبر المطلوب ومظاهره ، فمنها :

١ - الاستمرار في العمل الحكيم ، والثبات على التقوى والعمل الصالح .. قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

٢ - البذل والتضحية في سبيل الله ، والجهاد بالمال والنفس ، والوقت ، وجميع ما يملكه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ

---

(١) الآية (٢٦٩) البقرة . (٢) الآية (٤٦) الأنفال .
(٣) الآية (٤) الصف . (٤) الآية (٤٥) الأنفال . (٥) الآية (٢٠٠) آل عمران .

اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - التعقّل في العمل ، وعدم التعجل في النتيجة ، وضبط النفس ، قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (٣) .

٤ - عدم الركون إلى الأعداء ، وعدم توليهم ، وإعلان البراءة منهم ، وتجنب الخضوع والتنازل عن أمور الدين من أجلهم ، قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٥) .

٥ - التصديق بوعد الله ، والجزم بأن العاقبة للمتقين ، قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) .

٦ - تفويض الأمر لله سبحانه ، وصدق التوكل عليه ، فهو القادر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٨) ، وقال : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٩) .

إلى غير ذلك من معالم وتوجيهات قرآنية ، لو تنبه إليها الدعاة ، وتمسكوا بها مجتمعة ، لما وقفت أمامهم عقبة ، ولا عَسُرت عليهم مشكلة .

هذه أيها الإخوة والأخوات : أهم المعالم والبصائر في مواجهة المشكلات الدعوية وعقباتها ، فلابد لنا تجاهها من الصدق والمجاهدة ، ومن الصبر والمصابرة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٠) .

---

(١) الآية (١٤٢) آل عمران .
(٢) الآية (٣١) محمد .
(٣) الآية (٣٧) الأنبياء .
(٤) الآية (٢٤) الإنسان .
(٥) الآية (١١٢) هود .
(٦) الآية (٦٠) الروم .
(٧) الآية (١٠٣) يونس .
(٨) الآية (٨١) النساء .
(٩) الآية (٥٧) النور .
(١٠) الآية (٦٩) العنكبوت .

الفصل
السابع

بصائر دعوية متفرقة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فنتناول في هذا الفصل بصائر دعوية عامة ترجع إلى جوانب شتى ، وقد جعلتها في بصائر خمسة ، هي :

البصيرة الأولى : التبصر بضرورة عقد الموازنات الدعوية بأشكالها المختلفة :

وهي ما يعرف في اصطلاح الدعاة بـ (فقه الموازنات) ، وكثيرًا ما اختلف الدعاة المعاصرون في تقبل هذا المصطلح أو رفضه ، دون تدقيق في فهمه ، وتحديد للمراد منه .

فظنه بعضهم : تقديمًا للمصالح الزمنية على النصوص الشرعية ، وخروجًا عن الضوابط الشرعية بسبب الأهواء البشرية ..!

ورآه بعضهم : ضرورة دعوية ، وحاجة ماسة ، لا بد منها لتَسلم مسيرة الدعوة من التخبط وتصل بالناس إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

ولا أظن أنه سيبقى من يعارض هذا المصطلح ، ويزهد في هذه البصيرة بعد أن تتضح له أبعادها ، ويتفهم المراد منها .

فإن فقه الموازنات يمثل ركنًا من أركان (فقه الدعوة) الذي يشتمل على أنواع من الفقه مثل :

١ - فقه الأحكام . ٢ - فقه الواقع .

٣ - فقه المقارنات والمفارقات . ٤ - فقه الموازنات .

ولا بد للداعية الذي يدعو إلى الله على بصيرة ، من معرفة بفقه الموازنات ، وذلك بعد تفهمه لفقه الأحكام وفقه الواقع .

وفقه الموازنات له محاور عديدة منها :

أ - فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد .

ب - فقه الموازنة بين المصالح والمصالح .

ج - فقه الموازنة بين المفاسد والمفاسد .

هـ فقه الموازنة بين الإمكانات والواجبات .

د - فقه الموازنة بين طبيعة الداعي ووظيفته .

وكل هذه الأنواع من فقه الموازنات واضح في المنهج الدعوي النبوي ، وفي المنهج الدعوي الراشدي ، اللذين أمرنا بالتمسك بهما ، والعض عليهما بالنواجذ ..

فبه نفهم أبعاد قوله ﷺ لعائشة : (لولا أن قومك حديثو عهد بشرك ، لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين) .

وبه نفهم إصرار الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ على إنفاذ جيش أسامة ﷺ على الرغم من مخالفة عمر له .

وبه نفهم إصرار عمر ﷺ على عدم تقسيمه سواد العراق بين الغانمين ، على الرغم من مخالفة الكثير له .

كما نفهم به أبعاد مقولة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لولده عبد الملك الذي استبطأ موقف أبيه من بعض الأمور بعد خلافته فقال له : يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور ؟ فواللّه لا أبالي أن تغلي القدور بي أو بك في الحق !!

فقال له : لا تعجل ، فإن اللّه ذم الخمر في القرآن مرتين ثم حرمها في الثالثة ، وإني أخشى أن آخذ الناس بالحق جملة ، فيدفعوه جملة ، فيكون من ذا فتنة) .

هذا أيها الإخوة والأخوات عن فقه الموازنات عامة .

أما فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد : فلا بد للداعية قبل أن يقدم على فعل ، أو يتخذ قرارًا في موقف دعوي من ملاحظة هذه الموازنة بشكل دقيق ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ولأن الشريعة الإسلامية بوجه عام إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد في هذه الحياة في الدنيا والآخرة ، وتحقيق المصالح إنما يتأتى بأمرين اثنين هما : درء المفاسد ، وجلب المصالح .

وقد توصل العلماء باستقراء النصوص الشرعية وتتبع الأحكام الفقهية إلى أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، إذ لا يتحقق للناس الانتفاع من المصلحة إذا لم تدرأ المفسدة عنهم ..

ومن هنا : تقررت عند العلماء قواعد فقهية عديدة تؤكد هذه الحقيقة ، منها :

أ - درء المفاسد أولى من جلب المصالح [١] .

ب - يختار أهون الشرين [٢] .

ج - إذا تعارضت مفسدتان ، روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما [٣] .

د - الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف [٤] .

هـ - يُتحمّل الضرر الخاص ، لدفع الضرر العام [٥] .

إلى غير ذلك من قواعد مُسَلَّمة .

وقد استدل العلماء على مثل هذه القواعد الشرعية بمجموعة من الأدلة النقلية أو العقلية ، من ذلك قوله ﷺ في حديث البخاري : (.. فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [٦] ، فقد قدم الشارع فيه اجتناب المنهيات على فعل المأمورات .

وإن نظرة متفحصة في الركن الأول من أركان الإسلام وهو (الشهادتان) يتبين لنا أن الشارع قدم فيه درء المفاسد على جلب المصالح ، إذ قدم النفي على الإثبات فيهما .

فقولنا في النفي (لا إله) يحقق درء المفسدة المترتبة على تأليه من لا يستحق التأليه ، وقولنا في الإثبات (إلا الله) يحقق جلب المصلحة المترتبة على إثبات الألوهية لإله واحد أحد ..

وأي مفسدة أعظم من أن يعبد غير الله ، وأي مصلحة أكبر من مصلحة التوحيد ..

---

(١) مادة (٣٠) من قواعد المجلة .

(٢) مادة (٢٩) من قواعد المجلة .

(٣) مادة (٢٨) من قواعد المجلة .

(٤) مادة (٢٧) من قواعد المجلة .

(٥) مادة (٢٦) من قواعد المجلة .

(٦) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب ، رقم (٦٧٤٤) .

إذ لو قام الكون على غير التوحيد ، لعم الفساد والخراب .. قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

كما أن فهم هذه القاعدة على وجهها الصحيح يفسر لنا حكمة الشارع في تنزيل القرآن الكريم متدرجًا ، وعدم إنزاله دفعة واحدة .

لأنه لو نزل دفعة واحدة ، لترتب على نزوله مفاسد كبرى ، حيث يثقل على الناس حفظه وفهمه والعمل به .

ولكنه نزل مفرقًا منجمًا – مهما طالت مدة نزوله – وتأخرت مصلحة بيان الخير الذي فيه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٢) .

وإن في تحريم الخمر في زمنه ﷺ دفعة واحدة نوعًا من المصلحة ، حيث يتبين للناس حكمه سريعًا ، فيمتنع الناس منه دفعة واحدة .

ولكن لما كان هناك مفسدة يتوقع أن تترتب على ذلك ، وهي أكبر من هذه المصلحة ، والمفسدة هي : عدم تمكن المسلمين جميعًا من الخروج عن عاداتهم لإدمانهم على شرب الخمر دفعة واحدة ، فيقع كثير منهم عندئذ في الحرج وإثم المخالفة ، قدم الشارع درء هذه المفسدة ، وجعل تحريمه على خطوات متدرجة .

وقد تفهم أسلافنا رحمهم اللّه هذه القواعد ، وفقهوا هذه الموازنات ، فوضعوا على أساسها مناهجهم الدعوية ، فأنقذوا المجتمعات الإسلامية من الانحراف ، وجنبوها كثيرًا من المفاسد المحيطة بهم .

وغفل عن فهمها وتطبيقها كثير من دعاتنا المعاصرين ، فجانبوها في أحكامهم وفتاويهم ، ولم يلاحظوها في مناهجهم وأساليبهم .. فلم يزيدوا الناس إلا بعدًا ووقوعاً في المعاصي والآثام ..

فكم رفض بعض الدعاة اليوم التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية ، وأصروا على معالجة الأمور والمخالفات دفعة واحدة ، سواء على النطاق الفردي أو على النطاق العام ، واستعملوا لذلك كلمة حق أريد بها باطل وهي قول بعض الدعاة (خذوا

---

(١) الآية (٢٢) الأنبياء .
(٢) الآية (٣٢) الفرقان .

الإسلام جملة أو دعوه جملة) التي أرادوا بها الدعوة إلى جمال الإسلام وكماله وعدم تجزئته ، ولم يخطر ببالهم قط أن يطالبوا الناس بالأخذ به دفعة واحدة !!

هذا ومن الجدير التذكير في هذا المقام : بأن دقة كثير من الموازنات الدعوية بين المصالح والمفاسد والسلبيات والإيجابيات ، تؤكد ضرورة الرجوع في مثلها إلى أهل العلم والفقه والاستنباط وأن لا تُترك لكل فرد أو داعية .

كما تستوجب الاحتياط في المواقف المشتبهة ، وعدم الجرأة فيها من قبل الدعاة .

البصيرة الثانية : وهي البصيرة المتعلقة بالموازنة بين المصالح والمصالح والمفاسد والمفاسد .

فقد تتعد المصالح الدعوية في بعض المواقف ، ولا يتمكن الداعية من تحقيقها جميعًا ، إذ لا بد أن يترتب على أخذه ببعضها ترك مصالح أخرى ..

فإن على الداعية هنا أن يعقد موازنة دقيقة في ترتيب هذه المصالح ليقدم أهمها وأكبرها على غيرها ..

فليس من العقل ولا من الشرع : أن تترك المصلحة الكبرى من أجل الأخذ بالمصلحة الدنيا ، ولا أن يقدم المهم على الأهم .

وهذا هو مقتضى ما سبق تقريره في بصيرة ترتيب الأولويات ، وذلك ليقدم الداعية ما هو أولى وأعظم ، على ما هو أدنى وأصغر ..

قال تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ (١) .

فإذا تعارض لدى الداعية أكثر من مصلحة في وقت واحد ، نظر إلى هذه المصالح من جهتين :

أ – من جهة أهمية المصلحة ذاتها وأهميتها : فيقدم المصلحة الضرورية على المصلحة الحاجية ، ويقدم المصلحة الحاجية على التحسينية ، وهكذا ، كما تقدم المصلحة المتعلقة بحفظ الدين على المصلحة المتعلقة بحفظ المال والنفس ، والمصلحة المتعلقة بحفظ النفس على المصلحة المتعلقة بحفظ العقل ، وهكذا ..

---

(١) الآية (٦١) البقرة .

ب - كما ينظر إلى المصلحة من حيث شمولها ، وانتشارها بين الناس وعظم أثرها : إذا لا يعقل إهدار مصلحة جمهور الناس من أجل مصلحة فرد ، أو فئة قليلة منهم .. ومن هنا جاء النهي شرعًا عن تلقي الركبان الذين يجلبون الرزق إلى السوق ، تقديمًا لمصلحة عامة الناس على مصلحة التجار ..

كم لا يصح أن تقدم مصلحة الاشتغال بنوافل العبادات على الاشتغال بتعلم أو تعليم العلوم الشرعية ، لأن الاشتغال بالعلم والتعليم أكثر نفعًا وأعظم أثرًا .

أما بصيرة الموازنة بين المفاسد والمفاسد : فقد تتعارض مفسدتان أمام الداعية، ولا مفر له من ارتكاب إحداهما ، فعلى الداعية البصير ارتكاب المفسدة الصغرى لدفع المفسدة الكبرى .

ومن هنا : وجب السكوت أحيانًا عن المنكر إذا ترتب على إنكاره ضرر أعظم ، وبهذه الموازنة نفهم نهي الشارع عن الخروج على الحكام ما لم ير الناس فيهم كفرًا بواحًا لهم عليه من الله برهان ..

لأن مفسدة طاعة الأمير الظالم والجائر ، أخف من مفسدة الخروج عليه وقتاله .. فيختار أهون الشرين ..

وكذلك أبيح للمضطر أكل الميتة أو شرب الخمر محافظة على حياته ، ارتكابًا لأهون الشرين ، وهما : مفسدة أكل الميتة والخمر المحرمين ، ومفسدة الموت والهلاك ..

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة قد تعرض في الحياة .

البصيرة الثالثة : وهي في الموازنة بين الإمكانات والواجبات ، فقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن تكون تكليفاته وتشريعاته موازنة بين إمكانات العباد وواجباتهم ، فلم يأمرهم إلا بما يستطيعون فعله ، ولم يكلفهم بمحال ولا بمستحيل ، ولا بما يوقعهم في الحرج ، فقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

ويوم كانت إمكانات المسلمين مع رسول الله ﷺ ضعيفة محدودة في مكة المكرمة لا تتوازن مع متطلبات القتال لأعدائهم ، اقتصر حكم الجهاد في مكة

على جهاد النفس وجهاد الدعوة .

وعندما تطورت إمكاناتهم نسبيًّا في السنوات الأولى من الهجرة ، وأصبح لهم كيان ودولة ، جاء الإذن لهم بجهاد القتال ، ولم يوجب عليهم .

وعندما زادت إمكاناتهم ، ومكنهم الله في الأرض ، جاء الأمر بالقتال لمن يقف أمام تعميم خير الإسلام على الناس ، وإخضاع الناس عامة لنظام رب العالمين الذي ارتضاه لعباده ، دون إكراه على الاعتقاد .. قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، وحتى لا يقدم الناس على القتال دون تحقيق لهذه الموازنة الدقيقة ، أوكل الشارع أمر القتال وعقد لوائه للإمام أو نائبه فقط ، فالإمام في الإسلام بمؤسساته التخصصية التي أمر الشارع بها بمثل قوله تعالى : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ والتي كانت تعرف تاريخيًّا في اصطلاح الفقهاء باسم : (أهل الحل والعقد) هو الذي يحسن هذه الموازنة ، ويقدر النتائج ، ويعلم الواقع المحيط بالدعوة أكثر من غيره ..

ولم يوكل ذلك إلى المقاتلين الذين قد تغلب عليهم الحماسة ، فتضعف موازناتهم ، فينطلقون من العواطف الجامحة ، ويتطلعون إلى النتائج العاجلة – كما يحدث كثيرًا في هذا العصر – .

فعندما صحا المسلمون من غفلتهم ، واستيقظوا على استغاثات المستغيثين ، وصيحات المصلحين ، برز أمامهم كم الواجبات الهائل ، وهم أضعف ما وصلوا إليه من حال ، على جميع المستويات الفردية والجماعية .. فانتفض بعضهم انتفاضة الجريح المثخن بجراحه ، واندفع بعضهم اندفاع الضعيف المهاجم في عقر داره ، والثائر المنتقم لحرماته دون تقدير للأمور ، وسبر لعمق الجراح ، ومن دون بصيرة بأساليب الدفاع ووسائله ..

---

(١) الآية (٣٩) الأنفال . (٢) الآية (٢٥٦) البقرة .

فتعمقت هذه الجراحات في جسدهم ، وتوالت الهزائم في حياتهم ، وتكررت عليهم النكبات ..

ولما كانت عملية الموازنة بين الإمكانات والواجبات ولا سيما في القضايا العامة ، عملية اجتهادية دقيقة لا يحسنها إلا العلماء العاملون ، والخبراء المتخصصون .. كان لا بد من الانضباط فيها ببعض الضوابط الضرورية ، من ذلك :

١ - الرجوع فيها لأولي الأمر في الأمة من الحكام المسلمين ، أو العلماء العاملين ، بمختلف تخصصاتهم ، الذين يمثلون بمجموعهم وأغلبيتهم أهل الحل والعقد في الأمة ، فهم وحدهم أصحاب الحق في عقد هذه الموازنات في القضايا العامة عند غياب الإمام المسلم ، وهم وحدهم القادرون على عقدها عقدًا صحيحًا قائمًا على أساسي : فقه الأحكام ، وفقه الواقع ، فيكون قرارهم فيها أبعد عن الخطأ ، وأقرب إلى الصواب .

٢ - التعاون الوثيق بين أولي الأمر من الأمراء والعلماء على تحقيق هذه الموازنات ، ومعهم في ذلك المسلمون جميعًا على مختلف مستوياتهم وتخصصاتهم ، وذلك لوضع الحقائق المجردة ، والمعلومات الصحيحة أمامهم ، تحقيقًا لمبدأ النصيحة الشرعية الواجبة لأئمة المسلمين وعامتهم ..

٣ - الانضباط الكامل بقرارهم فيها ، المبني على نتيجة تلك الموازنات ، والتنازل أمامه عن القناعات الشخصية ، والآراء الفردية ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) ، وجاء في الحديث الموقوف : (ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن) .

٤ - العمل الجاد في سبيل تنمية إمكانات الأمة ، والترقي بقدراتها ، مما يكون له أكبر الأثر في عملية التغيير عادة ، وتطوير الموازنات السابقة خاصة ، وعدم الانشغال بالأماني ، والآمال العاجلة ، أو الرضا بالواقع الضعيف .. تحقيقًا لمبدأ التعاون على البر والتقوى .

---

(١) الآية (٥٩) النساء .

هذه أيها الإخوة والأخوات : أهم الضوابط العلمية والعملية للموازنة بين الإمكانات والواجبات في القضايا العامة ، وبغير هذه الضوابط لا تتحقق الموازنة المطلوبة ، وتبرز الموازنات القاصرة الخاطئة التي لا يوثق بها ، ولا تقوم بوظيفتها ، وقد تجرُّ إلى التأخر والهلاك ، كما حدث ويحدث في الساحة الإسلامية اليوم .

بل في حالة الغفلة عن هذه الشروط اللازمة وأهميتها ، يحسب الذين يقومون بتلك الموازنات الخاطئة ، أنهم يحسنون صنعًا ، وقد ينظر إليهم من قبل بعض المسلمين نظرة إجلال وإكبار ..

ولو عقل المشكلة أمثال هؤلاء وتبصروا فيها ، لأتوا البيوت من أبوابها ، وعرفوا مسؤولياتهم في الإقدام على أمر ليس من اختصاصهم أو ليس لهم به علم .. واتجهوا بدلًا من ذلك إلى عمل ما يحسنون وإعداد ما ينفعهم حالًا ومآلًا ..

ومن هنا تتجلى لنا حكمة الشارع في إناطة بعض الأحكام الشرعية العامة بالإمام أو نائبه ، وإناطة بعضها الآخر بالأفراد ، دفعًا للتداخل بين الحلقات الخاصة والعامة ، ودرءًا للمفاسد المترتبة على ذلك .

البصيرة الرابعة : وهي المتعلقة بالموازنة بين طبيعة الداعي ووظيفته :

فقد اقتضت حكمة اللّه ﷻ أن تختلف طبيعة الداعي في خصائصها ومتطلباتها عن خصائص وظيفته ومتطلباتها .

فكان من أولى خصائص طبيعته : أنها تنفر من المعاصي والمنكرات ، ومن أبرز متطلباتها : الحب في اللّه والبغض في اللّه .

كما أن من أولى خصائص وظيفته : أن يعيش مع العصاة والمذنبين ويذكرهم ويأمرهم وينهاهم ، ويعالج سلوكهم ومنكراتهم .. ومن أبرز متطلبات هذه الوظيفة ، مخالطة الناس والخروج إليهم ، والصبر على أذاهم ..

فإن المؤمن بطبيعته إذا رأى المعصية والمنكر ، أنكرها قلبه ، وتمعّر وجهه ، ونفر من أصحاب المنكرات وابتعد عنهم ..

ولكنه بوظيفته مطالب بتغيير المنكرات ، ومعالجة أصحابها ، والأخذ بأيديهم لإنقاذهم ..

مثله في ذلك مثل الطبيب المعالج ، الذي تُنْكر طبيعته الأسقام والأمراض ، وتَنْفر نفسه من الجراثيم والميكروبات ، ويحذر العدوى والفيروسات ، ويحرص على النظافة والطهارة بكل معانيها .

لأنه أعرف الناس بآثار تلك الجراثيم والميكروبات ، وخطرها عليه وعلى الناس من حوله ، إلا أن وظيفته تتطلب منه قربًا من المرضى والمصابين ، ومعايشة وملامسة للجراثيم والميكروبات ، وتعرضًا للأوساخ والفيروسات ..

فيوم تغلب طبيعة الداعي على وظيفته ، ويستجيب لمتطلباتها على حساب متطلبات الوظيفة ، لم يعد داعية ولا مصلحًا ، ويفقد بذلك خصائص وظيفته ، ومبررات وجوده .

ويوم تغلب وظيفته على طبيعته ، فيألف المنكرات لمعايشتها ، ويهون عنده أمرها ، فلا ينكرها قلبه ، ويركن إلى أصحابها ، فيكون قعيدهم ، وأكيلهم وشريبهم ، لم يعد كذلك داعية ولا مصلحًا ، وأصبح والعصاة والمدعوين سواء .

مثله في ذلك مثل الطبيب الذي غلبت طبيعته ووظيفته ، فأجلسته بعيدًا عن المرضى والمصابين ، ينفر منهم ، ويتقزز من معالجتهم .

أو مثل الطبيب الذي ألف المرضى والمصابين ، فغفل عن خطر مرضهم ، ولم يعد يحذر من العدوى منهم .

فأنى لمثله أن يبقى صحيحًا معافًى ، أو يعالج المرضى ، أو يسلم له وصف الطبيب !!

لذلك أيها الإخوة والأخوات : كان لابد للداعية - كما لابد للطبيب - من موازنة دقيقة بين طبيعته ووظيفته ، تحقق الانسجام الكامل بينهما ، وتجعله يقوم بوظيفته حق القيام ، دون أن تتأثر طبيعته ، أو يعرض نفسه للمهالك والمخاطر .

ويوم اختلت هذه الموازنة عند كثير من دعاة اليوم ، ظهر فيهم صنفان من الناس :

أ - صنف غلبت وظيفتهم على طبيعتهم ، حتى أفقدتهم أخص خصائصهم ، فركنوا إلى أهل المعاصي والآثام باسم دعوتهم ، وجالسوا أصحاب المنكرات وآكلوهم وشاربوهم وهم غافلون عن منكراتهم ، مكتفون بأنهم ذكّروا وبيّنوا ، فكثّروا بذلك سواد العاصين ، وشملتهم اللعنة من حيث لا يشعرون .

فقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي : (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَقَعَ فِيهِمُ النَّقْصُ كَانَ الرَّجُلُ فِيهِمْ يَرَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ فَإِذَا كَانَ الْغَدُ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ فَقَالَ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : كَلا ، وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ) .

ب - وصنف غلبت طبيعتهم على وظيفتهم ، فأقعدتهم وأخرجتهم عن وظيفتهم ، فجلسوا بعيدًا عن المدعوين ، وانعزلوا عنهم ، أو أفقدتهم بعض خصائصهم ، فانقلبوا معسّرين منفّرين ، ينظرون إلى ضلال الناس وانحرافاتهم وأخطائهم نظرة المتأفف المتقزز ، دون أن يحدثوا فيهم تغييرًا .

وإذا ما ذكّروا الناس بمنكراتهم ، انقلبوا قضاة مؤدبين ، أو ولاة معزّرين ، أو غلاظًا منفّرين ومعسّرين .. بدلًا من أن يكونوا معهم هداة مبشرين ، ورحماءَ ميسرين ..

ثم إذا رأوا إعراض الناس عنهم ، ونفورهم من أسلوبهم ، زادهم إعراضهم ونفورهم غلظة وشدة ، فألقوا اللوم عليهم ، وسلقوهم بألسنة حداد ، وحكموا عليهم بأحكام قاسية ، ويئسوا من معالجتهم .

ولو فعل الطبيب مع مريضه جزءًا مما فعل هؤلاء ، لحكموا عليه بالحمق

والجهل ، وأنكروا عليه كل الإنكار !!

ولو تبصر هؤلاء وأولئك في هذا الأمر ، وعرف الصنف الأول : أن الحد الفاصل بين الركون إلى أهل المعاصي ، وبين مخالطتهم لعلاجهم وإصلاح أحوالهم هو : استمرار يقظة الداعية لحال العصاة ، وإنكار قلبه لمنكرهم ، واهتمامه الدائم بالتفكير والتخطيط لمعالجتهم ، والتذكير المتكرر بين فترة وأخرى لهم .. لما وقعوا في ذلك الخطأ .

فمن توفرت فيه هذه الأمور ، لا يعد راكنًا إليهم ، ولا يشمله الوعيد الشديد الوارد في أمثال هؤلاء .

فليس الفارق بين الأمرين : حدوث الخلطة والمعايشة لأصحاب المنكرات ، فإنه أمر لا بد منه للداعية والمصلح ، وإنما الفارق في صفة حال المخالطة .

ولا يخفى الفرق بين المخالطة هذه ، وبين مخالطة الطبيب المعالج لمرضاه ، فتراه يتابع أحوالهم ، ويرقب تحسنهم ، ويخطط دائمًا لشفائهم ، كما تراه يتحفظ في هذه الخلطة ، فيتناول من تحصينات المناعة ما يتناول ، ويسارع إلى النظافة والتعقيم كلما لامس مريضًا أو مرضًا ..

فبقدر يقظته واحتياطاته يسلم بحفظ اللّه ، وبقدر غفلته وتهاونه تصيبه العدوى بإذن اللّه .

ولو تبصر الصنف الثاني أيضًا : وعرف أن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم .

وأنه لا بد لكل مصلح ومعالج من مخالطة المصلحين والمعالجين ، وذلك لتشخيص أمراضهم ، وتحليل عللهم ، والوصول إلى إصلاحهم .. لما وقعوا في ذلك الخطأ .

وأكثر الناس معرفة بالفساد وأبعاده هو المصلح ، كما أن أخبر الناس بالمرض وأعراضه هو الطبيب .

ولعل من الوسائل المساعدة على تحقيق هذه الموازنة بين الوظيفة والطبيعة :

١ - تغليب جانب الصبر على المدعوين والرحمة بهم ، على جانب الشدة

والقسوة عليهم ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [1] ، وجاء في الحديث الشريف : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) .

٢ – التعامل مع المدعوين بروح النبوة والأخوة والصداقة ، بدلًا من التعامل معهم بروح الأبوة والسلطة والهيمنة ..

فإن الداعية في مجتمعه كالأخ أو الابن في أسرته ، يتعامل مع أخيه الصغير والمماثل له في السن ، بروح الإخوة العطوفة ، لا بروح الأبوة المهيمنة ، ويتعامل مع أخيه الكبير ، ومع أبيه بروح البنوة المسترحمة ، فيألفه بذلك الطرفان من جهة ، وينفذ إلى قلوبهم من أقرب طريق من جهة أخرى .

ولعل في تكرار صفة الأخوة في وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حين أرسلهم الله إلى أقوامهم إشارة إلى هذا الأمر ، وإرشادًا إليه .. قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ..وهكذا ..

نسأل الله ﷻ أن يعيننا والدعاة جميعًا على تحقيق هذه الموازنة الصعبة بين طبيعتنا ووظيفتنا ، وأن ينجينا من شر الخلطة السيئة ، إنه على ما يشاء قدير .

البصيرة الخامسة : وهي المتعلقة بضرورة تحقيق الأصالة والمعاصرة في الدعوة الإسلامية .

ونريد بالأصالة هنا : (المحافظة على ذاتية الدعوة ، باستنادها إلى الأصول والأدلة الشرعية ، والتمسك بمبادئها الأساسية) ويقابل الأصالة بهذا المعنى : (تَبَعيَّة الدعوة ، وبُعدها عن أصولها وأدلتها الشرعية ، وانحرافها عن مبادئها الأساسية) .

كما نريد بالمعاصرة هنا : (تكافؤ الدعوة مع العصر الذي تعيش فيه ، بحيث تعالج واقعه ، وتلبي متطلباته) ويقابل المعاصرة بهذا المعنى : (قصور الدعوة ، وعدم قدرتها على معالجة واقع عصرها وتلبية متطلباتها) .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

---

(١) الآيات (١٧ - ١٨) البلد .

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (١) .

ولقد حققت الدعوة الإسلامية هاتين الخصيصتين في أيامها الأولى على أحسن وجه ، فعندما حاول العرب أن يصرفوا الرسول ﷺ عما أمره الله به ، وساوموه فيها ، وقف منهم موقفًا حاسمًا ، وروي عنه أنه قال لعمه أبي طالب : (يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه) .

ولم يكتف بذلك ، بل وَضَّح لهم أصالة دعوته ، وحدود إمكاناته في ذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ، كما صارحهم وفاصلهم - كما أمره الله ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٣) .

وقام في الوقت نفسه يدعوهم ويحرص على هدايتهم كل الحرص ، فخاطب قلوبهم وعقولهم وحواسهم ، ونوع أساليبه معهم ، وأراهم من المعجزات ما أراهم .

وأكثر فيهم ﷺ الاتصالات الشخصية ، والزيارات الدعوية ، وأقام لهم الدعوات العامة والخاصة ، وتنقل من بلد إلى بلد ، ومن قبيلة إلى أخرى ، وسافر إليهم وصبر عليهم ..

كما كاتب الملوك والرؤساء ، واستخدم جميع الوسائل المتوفرة في عصره سواء منها الوسائل المحلية والوافدة ، إلى غير ذلك مما هو معروف في سيرته ﷺ ومنسجم مع توجيهات ربه ، ويحقق الأصالة والمعاصرة في دعوته .. وتَبِعَه في

---

(١) الآيات (٢٤ - ٢٧) إبراهيم . (٢) الآية (١٥) الأنعام .

(٣) سورة الكافرون .

ذلك الخلفاء الراشدون وصحابته الأكرمون ، فكانوا على نهجه سائرين ولسنته متبعين ، ولطبيعة الدعوة واعين فاهمين .

فحققوا للدعوة الإسلامية خصائصها ، وحافظوا على أصالتها ومعاصرتها ، ودفعوا ركب الدعوة إلى الأمام ، فامتد خيرها ، واتسعت رقعتها ، وشاع هديها في الآفاق .

ولعل من الأمثلة الناطقة بتحقيق الأصالة والمعاصرة في زمنهم :

١ - موقفهم من جمع القرآن الكريم في زمن أبي بكر ﷺ ، وتوحيد المصاحف في زمن عثمان ﷺ .

٢ - وموقفهم من إنفاذ جيش أسامة بن زيد ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ والحادثتان مشهورتان معروفتان .

ثم اختلفت نسبة تحقيق الأصالة والمعاصرة في الدعوة الإسلامية مع امتداد الزمن ، ومرت الدعوة في أحوال متعددة ، تتقدم تارة وتتأخر أخرى ، تقوى وتضعف ، وذلك تبعًا لنجاح أصحابها في تحقيق هاتين الخصيصتين ، أو عدم نجاحهما في ذلك على الوجه الأكمل .

من هنا رأيت أيها الإخوة والأخوات أن أجتهد في ذكر ضوابط علمية وعملية لتحقيق هاتين الخصيصتين ، حرصًا على سلامة مدلول هذين المصطلحين وصحة تطبيقهما ، حتى لا يساء فهمهما فتصاب الدعوة بالجمود والتزمت أو تقع في التنازلات والتجاوزات .

فليست الأصالة كما يفهمها بعض الناس جمودًا على النصوص ولا تحجرًا في العقول .

وليست المعاصرة أيضًا : ميوعة في المواقف ، ولا ذوبانًا في الشخصية .. وليست الغاية من الدعوة إرضاء الناس ، وتحقيق رغباتهم ، وإنما هي هدايتهم ودلالتهم على الصراط المستقيم التي رسمها ربهم .

فلن يرضى المخالفون المعاندون عن الداعية مهما تنازل وسايرهم إلا أن يكون تبعًا لأهوائهم ومحققًا لرغباتهم .. قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا

ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) .

ويمكنني إجمال هذه الضوابط فيما يلي :

١ - المحافظة على الأصول الشرعية محافظة تامة ، والتمسك بالسنة النبوية ، وسنة الخلفاء الراشدين ، والعض عليهما بالنواجذ .

٢ - اجتناب البدع المذمومة اجتنابًا كاملًا ، والحذر منها كل الحذر : ولا يعني هذا الضابط اجتناب كل جديد ، والتمسك بكل قديم ، وإنما الأخذ بالصالح والحسن قديمًا كان أو حديثًا ، أو تجنب السيئ والفاسد دون نظر لقدمه أو حداثته .

٣ - التمييز الدقيق بين المناهج الدعوية الثابتة ، وبين المناهج والأساليب والوسائل المتطورة . فكثيرًا ما يختلط الأمر في هذا على بعض الدعاة ، فتتداخل عليهم المناهج ، كما تلتبس عليهم بعض الأساليب والوسائل بالمناهج - وقد أوضحنا شيئًا من هذا في بصائر سابقة - .

٤ - المحافظة على شرعية المناهج والأساليب والوسائل ، وتجنب مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) لأن للوسائل حكم المقاصد .

٥ - مراعاة الاختلاف في الأحكام الشرعية ، فلا يُنَزَّلُ الأمر المختلف فيه منزلة الأمر المتفق عليه ، ولا تلحق المسائل الفرعية بالمسائل الأصلية ، ولا الأحكام الظنية بالقطعية .. وهكذا .

٦ - البعد عن الغلو والتشدد ، وتجنب التقصير والتساهل ، والتزام التوسط والاعتدال في التمسك بأحكام الدين .

٧ - الرجوع في حكم المسائل المستجدة ، وتحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة إلى أهل العلم والاختصاص ، وعدم الجرأة في اتخاذ المواقف وإصدار الفتوى فيها ، فإن إصدار الأحكام الشرعية والفتاوى أمر دقيق وخطير ، وإن للتحقيقات العلمية والموازنات العملية بين الأصالة والمعاصرة رجالها وأهل الاختصاص فيها . وليس

(١) الآية (١٢٠) البقرة .

لكل داعية أو مسلم أن يدلي بدلوه فيها ، مهما حسنت نيته وسلم قصده - كما يحدث كثيرًا في زماننا ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (١) ، وقال أيضا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

إلى غير ذلك من ضوابط ومعايير تحقق هاتين الخصيصتين وتضبط الموازنة بينهما ، وتعصم بإذن اللّه من الزلل فيهما . فلكَمْ أُسيء فهمهما على مدى التاريخ ، فوقوع الدعاة في أخطاء تطبيقية باسم الأصالة والمعاصرة أوْدت ببعضهم إلى الكفر والضلال ، وأوقعت آخرين بالاضطراب والتخبط في طريق الدعوة .

نسأل اللّه ﷻ أن يبصرنا في أمر ديننا ، وأن يحفظ علينا دعوتنا من الغلو والتقصير ، وأن يأخذ بأيدينا إلى ما يرضيه . وأستودعكم اللّه الذي لا تضيع ودائعه .. والحمد للّه رب العالمين ..

★ ★ ★

---

(١) الآية (٣٦) الإسراء .

(٢) الآية (١١٦) النحل .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة ، للكنوي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة .

٣ - حجة اللّٰه البالغة ، للدهلوي .

٤ - حياة الصحابة ، لمحمد يوسف الكاندهلوي .

٥ - جمع الفوائد ، لمحمد بن سليمان المغربي ، طبعة دار القبلة ، جدة .

٦ - خصائص التصور الإسلامي ومعوقاته ، لسيد قطب .

٧ - سنن ابن ماجه ، برنامج صخر للحديث الشريف .

٨ - سنن أبي داود ، برنامج صخر للحديث الشريف .

٩ - سنن الترمذي ، برنامج صخر للحديث الشريف .

١٠ - سنن النسائي ، برنامج صخر للحديث الشريف .

١١ - شرح القواعد الفقهية ، لأحمد الزرقا .

١٢ - صحيح البخاري ، برنامج صخر للحديث الشريف .

١٣ - صحيح مسلم ، برنامج صخر للحديث الشريف .

١٤ - الفقيه والمتفقه ، للخطيب البغدادي .

١٥ - فيض القدير ، للمناوي .

١٦ - في ظلال القرآن ، لسيد قطب .

١٧ - كشف الخفاء ، للعجلوني ، تعليق ، أحمد القلاش ، طبعة مؤسسة الرسالة .

١٨ - مجموع الفتاوى ، لابن تيمية .

١٩ - مدارج السالكين ، لابن القيم .

٢٠ - المسند للإمام أحمد ، برنامج صخر للحديث الشريف .

٢١ - موطأ الإمام مالك ، برنامج صخر للحديث الشريف .

فهرس الموضوعات

* * *

نبذة عن المؤلف

هو محمد أبو الفتح البيانوني ابن الشيخ أحمد عز الدين البيانوني المولود سنة ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠م في حلب - بسورية .

حصل على إجازة في الشريعة من جامعة دمشق عام ١٩٦٣ م ، ثم حصل على ماجستير في تاريخ الفقه وأصوله من كلية الشريعة - جامعة الأزهر عام ١٩٦٧م ، ثم دكتوراة في أصول الفقه من نفس الكلية عام ١٩٧١م .

- عمل في التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية من عام ١٩٦٥م إلى ١٩٩٤م ، مع انقطاع ثلاث سنوات فقط عن التدريس ، كما عمل موجهًا أول في إدارة الدعوة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الدوحة بدولة قطر من عام ١٩٩٥م - ١٩٩٨م ، ثم عمل أستاذًا مساعدًا بقسم الفقه وأصول الفقه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت منذ عام ١٩٩٨م ولا يزال فيها ، عين رئيسًا لقسم الفقه والأصول بكلية الشريعة في جامعة الكويت عام ٢٠٠١ م .

له الكثير من الأعمال المطبوعة منها :

- كتاب « الإمام سفيان الثوري : حياته العلمية والعملية » - نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - بالقاهرة .

- « دراسات في الاختلافات العلمية » نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .

- « العبادة : دراسة منهجية شاملة في ضوء الكتاب والسنة » نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .

- « الحكم التكليفي في الشريعة الإسلامية » رسالة دكتوراة .

- « وحدة العمل الإسلامي بين الأمل والواقع » .

- « المدخل إلى علم الدعوة » .

- « مقوّمات تطبيق الشريعة » .

- « جهاد الكلمة : معالمه وضوابطه » .

إلى غير ذلك من بحوث أصولية ودعوية كثيرة نشرت في المجلات العلمية المتنوعة ..

- أشرف على ما يزيد على ٣٥ رسالة علمية جامعية ، ما بين رسالة دكتوراة وماجستير .

- شارك في مؤتمرات علمية ودعوية كثيرة ، وله جولات دعوية وعلمية في إفريقيا وأمريكا وأوربا وآسيا .

رقم الإيداع
2001/13360
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-019-1

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . .   السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « بصائر دعوية » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع سويًا مسيرتنا إلى الأمام ويعود النفع على القارئ والدار .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : ....

الدولة : .... المدينة : .... حي : .... شارع : ....

ص.ب : .... تليفون: .... فاكس : ....

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

□ أثناء زيارة المكتبة □ ترشيح من صديق □ مقرر □ إعلان □ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟

□ رخيص □ معقول □ مرتفع (لطفًا وضح لِمَ) ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ مطبعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

أ. د. مُحَمَّد أبُو الفَتح البَيَانُونِي

BEYANOUNI.COM الموقع الرسمي



الكتاب في سطور

كلما كانت الدعوة إلى أمر عظيم ، عظمت الحاجة إلى البصيرة فيها وإلى الإحسان في مناهجها وأساليبها ووسائلها . وهل هناك شيء أعظم من الدعوة إلى الله ، وهل هناك شيء أحسن من أن يلحق المؤمن بركب الأنبياء والمرسلين وقوافل الدعاة والمصلحين ؛ لذا فإنه لما كانت الدعوة إلى الإسلام تعني الدعوة إلى اعتناق عقيدة وشريعة ونظام حياة ، على جميع المستويات وفي مختلف الميادين ، لا كما يتوهمها البعض دعوة جزئية أو جانبية تدعو إلى فضيلة خاصة ، أو خلق معين ، كما أنها ليست قاصرة على مجرد انتساب المرء إلى جمعية أو جماعة من الجماعات . ولما كان مفهوم البصائر الدعوية أشمل من أن يكون قاصرًا على بصائر في منهج أو أسلوب أو وسيلة ؛ فقد جاء الكتاب ليتناول جوانب متعددة من بصائر الدعوة إلى الله حيث تناول جوانب العقيدة ، والعبادة ؛ وأصول الدعوة ، ومصادرها ، ومنهج الدعوة ، وأسلوبها ، ووسائلها ، وما هي العقبات والمشكلات التي تقف في وجه الدعوة ، كل ذلك تناوله الكتاب بالبحث والإيضاح وبَيَّنَ أن هذه البصائر لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مأخوذة ومستوحاة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنسجمة مع سيرة الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين ، وذلك لا يكون أيضًا إلا بقدر التفهم للواقع الذي تراد فيه الدعوة إلى الله ، والتبصر بأحوال المدعوين لهذا الدين . وإلا كانت الدعوة دخولًا إلى البيت من غير بابه ، ووضعًا للشيء في غير نصابه ، فيسيء إلى الداعية من حيث يريد الإحسان ، وينفر من دعوته من حيث يريد الدعوة إليها . لذا فإن الكتاب جاء ليوضح ذلك كله وينبه الداعية إلى أن يكون على بصيرة من أمر دينه .

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
١٢٠ شارع الأزهر ص.ب ١٦١ الغورية
ت: ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٣٢٨٢٠
فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)